تاريخ ما بين السطور

السفاح الذي أباد الأزتيك

رمضان مصطفى سليمان

بين التاريخ والضمير الإنساني

في أعماق التاريخ ، تتردد أصداء الغزوات الكبرى التي لم تكن سوى مآسٍ إنسانية مغلفة بشعارات المجد والدين . ومن بين هذه الغزوات التي حفرت في ذاكرة الإنسانية جرحًا لا يندمل ، تلك التي قادها **فرناندو كورتيز** ضد شعب **الأزتيك** في مطلع القرن السادس عشر.

لم يكن هذا الغزو مجرد صدام بين حضارتين ، بل كان مشهدًا دراميًا تتصارع فيه **الرغبة في الثروة والسلطة** مع **صوت الضمير والإيمان** ، حيث تبرز شخصيات مثل القس الإسباني **برنار دياز** ورفيقه **أنريكو موجير** كمرايا تعكس الصراع بين الإنسان وربه ، وبين الغزاة والمغزوين ، وبين الذهب والروح.

التاريخ يشهد والدم يروي

في عام 1519 ، تحركت السفن الإسبانية بقيادة كورتيز من كوبا نحو المكسيك ، تحمل على متنها مزيجًا من الجنود ، والمرتزقة ، والكهنة ، والنساء . كان الهدف المعلن نشر المسيحية ، أما الهدف الخفي فكان **ذهب الأزتيك** وثراءهم الأسطوري .

لكنّ الحقيقة لم تكن لتُروى لولا شهادة القس **برنار دياز** ، الذي وثّق فصول تلك المأساة في مذكراته ، مسجلاً ما رآه بعين الضمير قبل عين الجسد.

كتب دياز بأسى :

لو لم أدوّن ما حدث ، لضاعت الحقيقة في أناشيد الفخار الكاذبة التي صنعها الشعراء للغزاة .

لقد كان كورتيز في نظر دياز تجسيدًا للطمع الذي يتقنع بعباءة الدين ، يقرأ صلواته قبل القتال ، ثم يغمس سيفه في دماء الأبرياء بعدها مباشرة.

الحوار بين الطمع والإيمان

كان بين دياز وكورتيز حوار دائم، أشبه بمناجاة بين الخير والشر . قال له القس ذات يوم وهو يراه يتهيأ للمعركة :

أيها القائد العظيم ، إن الله أمرك أن تهدي هؤلاء الناس إلى المسيحية ، لكنه لم يأمرك أن تهدر دماءهم . لا تقتل أحدًا قبل أن تعرض عليه الإيمان ، فإن قبله ، فلا حق لك في ماله ولا في أرضه .

لكن كورتيز كان يبتسم ابتسامة باردة ، تعلوها سخرية المنتصر على ضعفه ، ثم يجيب بصوت حاسم :

يا قس ، السماء بعيدة ، أما الأرض فهنا... والذهب فيها أقرب إلى يدي من وعد الجنة .

هنا يتجلى **البعد النفسي والفلسفي** للصراع : كورتيز ليس مجرد قاتل ، بل إنسان تماهى مع طمعه حتى غدا عبده ، يرى الخلاص في السيطرة ، والخلود في الغنيمة ، بينما يراه دياز عبدًا لضلاله ، يحيا بعينين لا تبصران سوى بريق المعدن الأصفر .

القس أنريكو موجير... صوت الضمير المصلوب

أما القس **أنريكو موجير** ، فكان كالنبي الصارخ في البرية ، يوقظ في كورتيز ما تبقى من إنسانية ، لكن صوته كان يُغرقه ضجيج المدافع . كان يقف كل صباح على سطح السفينة يصيح :

الرب يقول : لا تقتل... لا تسرق... لا تزن !

وكانت الكلمة الأخيرة *لا تزن* تسقط كالسهم في ضمير كورتيز ، إذ كان يعلم أن خطيئته ليست في الحرب فقط ، بل في حياته كلها . لقد ترك زوجته في إسبانيا ، وأبحر ومعه **إحدى عشرة امرأة** يتناوب بينهن في الليالي ، في صورة فاضحة لانهيار القيم التي يدّعي الدفاع عنها.

ذلك الصوت الأخلاقي الذي كان يلاحقه كل يوم صار يثير حنقه ، حتى قرر إسكات صاحبه إلى الأبد . وحين جاءت **معركة مونتونشلو** في العشرين من مارس عام 1519، سقط القس موجير صريعًا ، لكن **الرصاصة لم تكن من سهام الأزتيك** ، بل من **بندقية إسبانية** - ربما بأمر كورتيز نفسه.

اعتراف برنار دياز... تيار الوعي بين الذنب والنجاة

يقول دياز في إحدى لحظات التأمل التي تشبه تيار الوعي:

كنت أراه يقتل ثم يصلي ، ينهب ثم يبارك ، كأنه يخلط بين الله والذهب . كنت أرتجف حين يمر بي ، أشعر أن سيفه لا يميز بين عدو وصديق ، بين كافر ومؤمن .

هنا ينكشف البعد **النفسي الداخلي** لشاهد المأساة . فالقس يعيش في **صراع وجودي** بين التزامه الكنسي وخوفه من بطش القائد ، وبين رغبته في قول الحقيقة وخشيته من الموت . كان يرى نفسه رهينة لتاريخ يُكتب بالدم ، ويعرف أن صمته مشاركة في الجريمة ، لكنه عاجز عن التمرد الكامل.

لو لم أكن قريبًا من حاكم كوبا دييغو فيلاسكيز ، لكان مصيري كمصير أنريكو موجير .

إنه صوت الضمير المكبوت في لحظة الخطر ، والإنسان الضعيف في مواجهة التاريخ.

الدم المقدس والذهب الملعون

لم يكن الأزتيك مجرد ضحايا حرب ، بل **شعبًا ذا حضارة وروح دينية عميقة** ، مارس طقوسه وقدّس رموزه ، حتى وإن بدت للغزاة وثنية . لكن كورتيز رأى فيهم كفرة ، يستحقون الفناء لا الهداية ، ووجد في إبادتهم وسيلة لتأكيد مجده وإرضاء مليكه الإسباني **شارلكان**.

يقول دياز :

كان يرى في الدم غنيمة ، وفي الخراب فتحًا ، وفي الموت خلاصًا لروحه التي لم تعد تعرف السلام .

لقد تحولت الحملة الإسبانية إلى **مجزرة باسم الله،** حيث امتزجت الترانيم بأصوات المدافع، والصلوات بأنين النساء والأطفال، حتى صار الدين ستارًا يُخفي أفظع الجرائم .

قراءة فلسفية ونفسية في شخصية كورتيز

من منظور التحليل النفسي ، يمكن فهم شخصية كورتيز بوصفها نموذجًا ل **الإنسان الممزق بين السلطة والأخلاق** .

فهو يعاني من عقدة العظمة ، ويؤمن بأنه مبعوث العناية الإلهية ، لكنه في العمق مدفوع **بشهوة السيطرة والخوف من النسيان** . كلما ازداد قتله ، ازداد شعوره بالفراغ الداخلي ، كأن الدماء التي يسفكها لا تطفئ ظمأه ، بل تزيده عطشًا.

ومن المنظور الفلسفي ، يمثل كورتيز نموذجًا ل الإنسان الميتافيزيقي المأزوم الذي يبحث عن معنى في اللاشيء ، ويخلق مبررات أخلاقية لجرائمه باسم الدين والحضارة ، وهو في الحقيقة **أسير لوهم الخلود الأرضي**.

بين التاريخ والإنسان

في النهاية، لا يبقى من كورتيز سوى صورة السفّاح الذي ظن أنه فتح أرضًا ، بينما أغلق أبواب الرحمة في وجه نفسه .

أما القس دياز ، فبقي شاهدًا على زمنٍ خان فيه الناسُ رسالاتهم السماوية ، وارتكبوا الفظائع باسم الإيمان .

تلك الحكاية ليست مجرد حدث في التاريخ ، بل **مرآة للإنسان عبر العصور** : كلما عبد الذهب ، نسي الله ، وكلما ظن أنه يخلّد نفسه بالعنف ، كان يكتب نهايته بيده.

وهكذا ، فإن مأساة الأزتيك ليست عن غزو أرضٍ فحسب ، بل عن غزو الضمير الإنساني ذاته.

حين تتقاطع الشهوة بالسياسة

هذا يا سيدي القس... يأخذنا من حكايات الدم والسيف إلى ذلك الرجل الذي وقف وراء كل ما سيحدث لاحقًا من مآسٍ ، إلى قلب الدراما حيث تتكوّن القرارات الكبرى في أذهان الملوك والقادة... فرناندو كورتيز ، ذلك الاسم الذي سيُصبح لاحقًا كابوسًا يؤرق شعب الأزتيك ، ورمزًا للعالم الجديد لحظة انفجاره تحت أقدام الغزاة القادمين من وراء البحر.

من هو هذا الرجل ؟

وما الذي أهّله لقيادة حملة لم تغيّر وجه المكسيك وحسب... بل أعادت تشكيل التاريخ الإنساني كله ؟

كان كورتيز ينتمي إلى أسرة نبيلة عريقة ، بخلاف رفيقه في الجريمة فرانثيسكو بيزارو ، سفّاح الإنكا بعده بعشرين عامًا . التحق بجامعة سلامنكا ودرس القانون ، لكن روحه كانت ضالة ، لا يستهويها الهدوء ولا الدراسة . كان يبحث عن مجدٍ يصنعه بيديه ، وعن ثروة تكفي لكي لا يركع لأحد . فشدّ رحاله إلى الحرب الإيطالية ، محاربًا تحت راية خوان دي غوثمان حاكم قرطبة بتكليف من الملك الشاب كارلوس ، الذي سيُعرَف لاحقًا باسم الإمبراطور شارلكان.

وهناك... في أروقة السلطة ومجالس الحكم ، بدأت خيوط المغامرة تُنسج . كانت بين كورتيز وإحدى محظيات الملك علاقة خفية... علاقة ذات مصالح متبادلة ، هي تهديه مفاتيح النفوذ ، وهو يَعِدُها بذهبٍ يأتي به من العالم الجديد ، ذهبٍ كانت أوروبا تسمع عنه أكثر مما تراه.

لم يكن أحد يشك في مهارته العسكرية . كان قائداً من طراز مختلف : صلبًا ، حاد الذكاء ، يبني الرجال بإرادته الحديدية ، ويُصلح الأخطاء في لحظات . وعندما أرسلته التوجيهات الملكية إلى جزيرة كوبا... كانت بداية كل شيء . لم يُنشئ علاقة طيبة مع حاكم الجزيرة دييغو فيلاسكيز ، رغم أن الرجلين من أسرتين كبيرتين.

لماذا ؟

لأن الصراع بينهما كان صراع ذكورة وسلطة... قبل أن يكون صراع نفوذ.

كانا يتنافسان على نساء الجزيرة ، على نظراتهن ، وعلى ما تمنحه الأنوثة للقائد من شعور بالتفوق والهيمنة . وربما كان هذا واحدًا من الأسباب التي دفعت فيلاسكيز بدافع الغيرة وربما بدافع الخلاص من منافس إلى الموافقة على تجهيز حملة بقيادة كورتيز لغزو المكسيك . لعله كان يأمل أن يذهب... ولا يعود.

X

سأل القس دياز محدثه في فضولٍ يليق باعتراف على مشارف التاريخ:

وكيف بدأ التفكير في الغزو يا سيدي؟

تنهد الرجل وهو يستعيد صورًا حالكة من الذاكرة :

بدأ كل شيء عند وصول كورتيز إلى كوبا . منحه فيلاسكيز مزرعة كبيرة ليديرها ، فانغمس في إصلاحها وتطويرها. جفّف المستنقعات مستعينًا بجموع السكان الأصليين... لقاء الطعام والكساء فقط . كانت البداية وئيدة ، والمودة بينه وبين الحاكم في أوجها... زيارةٌ تقود إلى أخرى ، وليالٍ طويلة تنقضي في أحاديث عن أراضٍ غامضة تقع في الجانب المقابل من البحر... أراضي اليوكاتان.

قال له فيلاسكيز ذات ليلة ، وكأنّه يفتح باب القدر:

أعتقد يا كابتن كورتيز أن أهل اليوكاتان قوم يحبون السلام ، وأرقى حضارة من جيرانهم في جزر الكاريبي.

رفع كورتيز حاجبيه ، عينه تتلمّظان طمعًا:

وهل زرت قرى اليوكاتان بنفسك يا صاحب السعادة؟

أجاب فيلاسكيز وهو يلوّح بكأسه:

مرة أو مرتين. واسمح لي أن أهمس لك سراً... نساء اليوكاتان فاتنات الجمال، مختلفات عن نساء جزرنا.

اقترب كورتيز كذئب يستنشق رائحة الفريسة:

مختلفات؟ بأي معنى ؟

ابتسم الحاكم ابتسامة لها ظلّ غامض :

في حيائهن الشديد... يلبسن لباسًا أبيض قطنياً وصوفيًا ، يستر الجسد من الرأس حتى القدمين. ليس كنساء جزر الكاريبي اللواتي اعتدن التخفف من الثياب . مظهرهن مهيب جماله عفيف... يزداد بهاءً بالتطريز بخيوط الذهب... وذلك من عادات أثرياء اليوكاتان.

حين نطق فيلاسكيز كلمة « الذهب »... تلمع بؤرة شهية كورتيز كشرارة.

هذا الرجل لم يكن يؤمن بالقدر... بل بصناعته.

خيوط ذهب؟ إذن مناجم الذهب هناك كثيرة ؟!

بالطبع...

فلماذا لا نغزو اليوكاتان ونجلب الذهب للإمبراطورية... ولأنفسنا؟

ضحك الحاكم بخفوت... ضحكة تحمل خوفًا من الحلم :

لا نستطيع إلا بأمر ملكنا شارلكان. ثم إننا لا نعلم ما ينتظر سفننا من أخطار حين تقترب من شواطئ اليوكاتان.

أَوَليسوا قومًا محاربين ؟

بلى... ولهم ملكٌ قوي الشكيمة... يدعى مونتزوما. ملك عادل لكنه شديد الريبة . لا أحد يعرف حجم ما يخفيه في مخازن عاصمته من أسلحة ورجال.

إذن هم شعب ذو حضارة راسخة...

أجل. وهناك من يقول إن أصلهم من أماكن بعيدة... ربما من مغول آسيا، وربما من مصر القديمة! لكن كل ذلك يبقى في حدود الأساطير.

X

وتتوقف الكلمات هنا يا سيدي القس...

لكن ما يدور داخل رأس كورتيز لا يتوقف أبداً.

في تلك الليلة، بينما كان فيلاسكيز يغطّ في سُكرٍ هانئ... كان كورتيز يسهر وحده ، تحدّق عيناه في الأفق الكاريبي المظلم .

كان يسمع همسًا يشبه نداء البحر:

تقدّم... خلف هذا المدى كنوز تنتظر أن تُنتزع ، وشعوب تنتظر أن تُخضع .

بدأت أحلامه تتشابك مع طموحه...

شيطان السياسة يُصافح شيطان الشهوة...

وتتوهج نيران المجد في داخله ، بينما التاريخ يستعد ليُقلب صفحة دامية.

لم يكن يفكر فقط في الذهب...

كان يرى نفسه سفير القدر ، يحمل صليب المسيح فوق أرضٍ وثنية...

ولكن الحقيقة ؟

كان يعشق السلطة حدّ الجنون.

ومن هنا... تبدأ رحلة الغزو... رحلة كان ظاهرها نشر الحضارة ، وباطنها تحويل الذهب إلى دم ، ودم الأزتيك إلى عرش يناسب أحلام كورتيز.

X

سيُبحر الرجل الطموح قريبًا نحو يوكاتان ، ثم إلى قلب عاصمة الأزتيك... إلى «تينوتشتيتلان»... جوهرة شعبٍ لم يكن يعرف أن نهايته تقترب من البحر مثل غيمةٍ حمراء.

وستكون كل خطوة في هذه الرحلة خليطًا من الشجاعة والدهاء والخيانة والخوف...

خطوة يصنعها كورتيز بقدميه... وتصنعه هي بدورها في سجلّ التاريخ.

لكن قبل أن تبحر السفن...

كان يجب أن يخون صديقه القديم فيلاسكيز...

فكل من يعرقل طريق المجد عند كورتيز... مصيره أن يُسحق تحت قدميه.

وسيأتي الغد حاملاً بداية المأساة...

مأساة شعب كامل صدّق الآلهة... فخانته السماء.

X

وهكذا، يا سيدي القس... تبدأ الحكاية.

ومن هنا فقط نفهم كيف يُصنع الغزاة...

ليس في ساحات القتال أولًا...

بل في دهاليز النفس والرغبة... وفي الصراع الخفي بين رجلين على امرأة...

وبين رجلٍ وحلمٍ أكبر من العالم نفسه.

في بحر الطمع والإيمان

في رياحٍ منقادةٍ عبر البحر الكاريبي ، كانت أصواتُ القادة الإسبان تتناوب على سطح السفينة كأمواجٍ تتصادمُ بالضمير الإنساني . صرختان متناقضتان تترددان في الفضاء: صوتُ الطمع الذي يلمعُ كذهبٍ تحت شمسٍ متقدة ، وصوتُ العقل الذي يحاول أن يكسو القرارات برداءِ الحُجّة والعُذر . في هذا الصراع الخفي بين الرغبة والتبرير وُلدت فكرةُ الاستطلاع إلى اليوكاتان ، لتبدأ سلسلةُ الأسئلة المريبة : هل الغزوُ من أجل المسيح أم من أجل الذهب ؟ وهل يجوزُ أن يتحوّل اكتشافُ شعبٍ جديدٍ إلى حقلِ تجربةٍ للسلطة والاحتلال ؟

في بداية القرن السادس عشر ، كانت إسبانيا قد خرجت من صراعاتٍ دامية في أوروبا ، لكنها لم تشبع بعدُ من نهم السيطرة . انتصاراتها في الأندلس وصعودُها كمملكةٍ بحريةٍ كبرى جعلاها تطمحُ لأن تمتدّ إلى ما وراء المحيط ، حيث تلمع الأخبار عن أراضٍ خصبةٍ وكنوزٍ خرافية . تحت غطاء التبشير باسم المسيح ، أطلقت تاجَها نحو المجهول ، لكن التاج كان مثقلاً بالذهب أكثر من الصليب.

في تلك اللحظة التاريخية كانت منطقة اليوكاتان نقطةَ تماسٍّ غامضة ، يسكنها شعبُ الأزتيك وحلفاؤهم من المايا . كامبيش ، الجزيرةُ الصغيرة الواقعة على حافة البحر الكاريبي ، كانت الميناء الذي تلتقي فيه التجارة والفضول الأوروبي . هناك وُلدت الفكرة : استطلاعٌ بسيط، لكنّه كان البذرة الأولى لغزوٍ دمويٍّ سيغيّر وجه العالم الجديد.

في ضوءٍ خافتٍ من مصباحٍ يتأرجح فوق سطح السفينة ، بدأ النقاش يحتدم . قال أحد الضباط، وهو يراقب الأفق :

لماذا لا نقبض على بعض أهالي اليوكاتان إذا جاءوا إلى كوبا متاجرين ؟ وبهذا نحصل منهم على معلوماتٍ تفيدنا إذا قررنا الغزو .

ردّ آخرُ بصوتٍ مترددٍ ، كأنّه يخشى أن يسمعه ضميره :

إنهم رغم ميولهم السلمية، حذرون أشدّ الحذر إذا طُرِحَ الحديث عن أمورهم الداخلية.

ارتفع صوتٌ ثالثٌ ، قاسٍ كالحديد :

سيفكّ التعذيب عقدة لسانهم .

ساد الصمت ، إلا من همس البحر ، قبل أن يضحك كورتيز ضحكةً باردةً تُخفي وراءها قراراً لا رجعة فيه :

إذن كيف نسكت على وجود الوثنيين في جوارنا ؟

ابتسم فيلاسكسز ابتسامةً تجمع بين السخرية والقلق :

إلى جوارنا ؟ إن بيننا وبينهم البحر الكاريبي يا عزيزي كورتيز . كأنك تريد أن تغزو أرضهم باسم المسيحية ؟

ردّ كورتيز بحزمٍ ونظرةٍ جائعةٍ :

باسم الذهب أولاً ، ولا بأس بعدها من إرغامهم على نبذ الوثنية . لن يعارض أساقفة إسبانيا الغزو إذا تحركنا باسم الدين .

تدخّل أحد القساوسة قائلاً :

لكن الملك مشغولٌ في أوروبا ، والحروب في ألمانيا تلتهمُ الجند والمال . ألن يكون من الجنون فتحُ جبهةٍ جديدةٍ في العالم الجديد ؟ .

فكّر كورتيز قليلاً ثم قال :

إذن لن نغزو بعد ، بل نستطلع. نعرفُ قوتهم ، ديانتهم ، وسرّ إيمانهم بملكهم مونتزوما . حين نعرفُ ذلك، يصبح الغزو سهلاً .

رفع القسُّ دياز رأسه ، و قال بهدوءٍ يحمل قلقاً روحيّاً :

هل تدركون أن هذه الأرض تسكنها أرواحٌ لم تعرف المسيح بعد ؟ ألسنا هنا لننقذها لا لنحرقها ؟ .

ضحك كورتيز وقال بسخريةٍ حادة :

من قال إن الخلاص لا يأتي بالنار ؟ .

X

الرحلة إلى كامبيش

كانت المياه الزرقاء تتلألأ كمرآةٍ تخفي وجهاً آخرَ للعالم . بعد أسابيع من الإبحار، ظهرت جزيرة كامبيش، حيث كانت السواحل مملوءةً بالناس يلوّحون بسعف النخيل ويرقصون على الإيقاعات . نزل الإسبان على الشاطئ ، يوزّعون

الهدايا الزجاجية والمرايا الصغيرة . الأهالي بدورهم قدموا الثمار والطيور والحيوانات.

قال كورتيز وهو يتأمل المشهد :

كأننا في مهرجانٍ من القرية الإسبانية... ولكن ما معنى هذه المواكب التي تسبقنا إلى المعبد ؟ .

أجاب القسُّ دياز وهو يراقب حركة النساء والرجال يحملون الطعام والذبائح:

ربما يقيمون طقساً دينياً لتكريمنا أو لآلهتهم . في كلتا الحالتين ، نحن في قلب الأسطورة.

حين دخلوا المعبد ، رأوا جدراناً مغطاةً بالرموز والدماء الجافة ، ورائحة بخورٍ كثيفٍ تخنق الهواء . وقف كورتيز مذهولاً ، وقال في نفسه :

هكذا تُبنى الحضارات على الخوف والإيمان معاً... ولكن الذهب هو الذي يجعلها تسقط.

ثم قال كورتيز بسخرية :

الذهب... هو الشمس التي لا تغيب . أراه في كل نظرةٍ وفي كل حجرٍ يلمع في جدار المعبد . هل أستطيع أن أُسكت صوت الرحمة داخلي ؟ لا حاجة للرحمة حين تكون الثروة على مرمى المدفع.

قال فيلاسكسز :

نضحك على أنفسنا ونخدع أرواحنا بعباراتٍ عن التبشير . لكننا نعلم أن البحر لا يُنصت إلا للطامعين. من يقدر أن يكون أخلاقياً حين يطارد المجد ؟ .

في تردد قال القس دياز :

يا ربّ، ما أصعب أن تُوازن بين العقيدة والضمير . كيف أُبرر لذاتي أن الإيمان يمكن أن يُحمل على ظهر المدافع ؟ هل غابت عنا كلمات المسيح ؟ .

ابتسم التاجر المرافق وقال بصوت هادئ :

رأيتُ الابتسامات تسبق السكاكين . أهلُ الجزيرة يستقبلوننا كأصدقاء ، ونحن نخطط لاحتلالهم. كم يشبه البحر هذه الوجوه: ناعمةٌ في السطح ، قاتلةٌ في العمق.

ما يحدث في هذا المشهد ليس مجرد لقاء بين حضارتين ، بل صدامٌ بين منظومتين أخلاقيتين : الأولى تؤمن بأن الخلاص يُفرض ، والثانية ترى أن الإيمان يولد من الانسجام مع الطبيعة والروح.

الفكر الأوروبي في تلك الحقبة كان يؤمن بالمركزية الحضارية ، وبأن الغرب يمتلك الحق الإلهي في تهذيب الشعوب الأخرى . هذا المنطق هو ما جعل فكرة الغزو رسالةً مقدسة ، بينما في جوهرها لم تكن إلا بحثاً عن الذهب والهيمنة.

التحليل النفسي للشخصيات يكشف أن الصراع لم يكن بين الإسبان والأزتك فحسب ، بل داخل الإنسان الأوروبي ذاته : بين الرغبة في المجد والخوف من الخطيئة ، بين الأوامر الملكية والضمير الفردي . كانت المسيحية هنا تُستَعمل كقناعٍ لتبرير الجشع ، فتحوّل الإيمان إلى وسيلةٍ للسيطرة ، والذهب إلى معبودٍ جديدٍ يخفي وجه الإله الحقيقي.

أما الاجتماعُ الثقافي فيُظهر مأساة التواصل المشوّه: المترجمون يخفون أكثر مما ينقلون ، الابتسامات تُخفي الحذر ، والقرابين تُقدّم في حفلٍ يظنه الإسبان ترحيباً ، بينما هو طقسٌ لاسترضاء الآلهة قبل دمٍ جديدٍ سيُراق.

X

الاقتراح الأول — القبض على التجار للحصول على الأسرار بالقوة - لم يكن مجرد فكرةٍ عسكرية، بل شرارةً لقرنٍ من العنف والاستعمار. لقد بدأ الغزو حين نُطقت الكلمة، لا حين أُطلقت المدافع .

النص يتركنا أمام سؤالٍ أبدي : هل يمكن أن تُبنى حضارةٌ على أنقاض أخرى دون أن تلطّخ روحها ؟ وهل يصبح الذهب مبرراً كافياً لمحو ثقافةٍ كاملة ؟

في النهاية، تبقى الأمواج تحمل سرّ التاريخ : تقترب ثم تنسحب ، كما تفعل القرارات التي تُعيد تشكيل مصير الشعوب . وما بين ضوء البحر وصوت المدافع ، ضاعت الحقيقة بين الطمع والإيمان ، بين الإنسان وظلّه. بين الانسان و ضميره ، بين الغدر و الخديعة .

بين حجر المعبد وصفحات الخريطة

دخلنا المعبد في صمتٍ مهيب . كانت الأرض تصدر صريرًا خافتًا تحت أقدامنا كأنّها صفحاتٌ من كتابٍ قديم تُقلّب بأصابعٍ مترددة . الهواء مشبعٌ برائحة البخور الممزوجة بملح العرق والخوف ، والضوء يتسلّل من ثقوب السقف كأنه خيطُ ذاكرةٍ يحاول النجاة من الظلمة.

في وسط القاعة ، أمام نافذةٍ مغلقةٍ منذ قرون ، كان ينتصب تمثالٌ ضخم لرجلٍ مهيب ، بلا لحية ، عيناه نافذتان إلى ما وراء الزمن ، وثيابه تلتف حوله كدرعٍ من الصمت . بدا وجهه كصخرةٍ صاغها الخوف ، لكنّ ملامحه تحمل سلامًا غامضًا ، كأنه يعرف ما سيحدث بعد ألف عامٍ أخرى.

تقدّم الكهنة والأزتك نحو التمثال . كانوا يحملون سلالًا من فواكه وأواني لحومٍ وحبوبٍ مقدّسة . ركعوا في صفوفٍ منحنية ، وارتجّ المكان بأصواتهم الخفيضة كأنها صلاةٌ تمزج الأرض بالسماء . ثم ارتفع نصلُ الكاهن الكبير ، وهوت الضحيةُ بصرخةٍ قصيرة، ليمتزج الدمُ برائحة الأرض. حين انسكب على المذبح ، بدا وجه التمثال وكأنه يبتسم ابتسامةً حمراء ، مزيجًا من الحياة والموت ، من الخلاص واللعنة.

سألتُ بصوتٍ خافت:

ما اسم هذا الإله ؟

أجاب أحد الكهنة :

يُدعى **كوركون**، سيّد المياه ، وحارس أرواح اليكاتان.

ثم تابع آخر بنغمةٍ من الأسطورة :

كلّ من يدخل المعبد بنيةٍ فاسدةٍ أو قلبٍ أسود ، يضربه كوركون بالبرق ، ويجعل دمه نذراً جديداً على هذا الحجر.

خرجنا من المعبد مثقلين بوقع الطقوس ، وعدنا إلى السفينة التي أتت بنا من كوبا . كان البحر ساكنًا ، لكن أرواحنا تموج بتساؤلاتٍ لا تهدأ: أهو الخوف مما رأينا ؟ أم رغبةٌ مبطّنة في امتلاك ما لم نخلق ؟

على سطح السفينة ، جلس كورتيز يرسم على الخشب خطوطًا بخنجره ، كأنه يخطّ خريطةً لقدرٍ قادم . سأله أحد الضباط :

هل تعرف تسليحهم يا كابتن ؟

ردّ بابتسامةٍ هادئة واثقة:

لم نرَ لهم محاربين بعد ، لكني رأيتُ في عيونهم ما هو أخطر من السيوف... رأيتُ إيمانًا أعمى.

ثم أخرج خرائطه الملطخة بالملح والحبر، ورسم خطوطًا لتحصينات جزيرة كامبيش. كانت رسوماته دقيقة ، لكنها تحمل وهم السيطرة أكثر مما تحمل منطق الواقع.

قال :

هذه تحصيناتهم ، لا تختلف كثيرًا عن قصورنا الطينية في إسبانيا. سنهدمها بمدفعين فقط.

تذكّرتُ حديث القس دياز يوم بدأنا الإبحار من كوبا :

الغزو بدأ يا بُني ، لكنه ليس غزوًا للأرض ، بل غزوٌ للنفوس. بين كورتيز وفيلاسكيز ، نارٌ خامدة تنتظر الشرارة.

حين واجهتُ كورتيز لاحقًا ، رأيت في عينيه بريقًا من العناد والرهبة.

قلت له :

فيلاسكيز لن يسمح لك بالإقلاع.

أجابني بهدوءٍ يشفّ عن حيلةٍ دفينة:

وعدني بتوقيعٍ شفهيّ وأنا معه على المائدة. لن يستطيع الرجوع عنه ، وسأجعل البحر يمضي بي قبل أن يكتشف ما خططتُ له.

سألته بدهشة :

وهل الغدرُ طريقُ المجد ؟

ضحك وقال:

الغدرُ ليس غدرًا إنْ خُطّ فوقه توقيعُ الملك.

تلك اللحظة كشفتْ عن وجهين للإنسان في مرآةٍ واحدة: أحدهما يحيا بالدهاء ، والآخر يموت ببطءٍ في ضميره . كان كورتيز يدرك أنه يُغامر باسم

المجد ، لكنه أيضًا يعرف أن التاريخ لا يرحم من يتردّد . داخله كان ساحةً من صراعٍ بين شهوة السلطة وصوتٍ خافتٍ يسأله : ماذا لو كنتُ أنا الكاهن المذبوح على مذبح المجد ؟

أما القس دياز فكانٍ مرآةً أخرى ، يرقب الأحداث بعينٍ روحيةٍ قلقة. في كلّ خطوةٍ كان يرى خطيئةً مغطاةً بالذهب . قال لي ذات مساء:

الغزو يبدأ حين نعتقد أننا نحمل النور، بينما نحن نحجب ضوء الآخرين.

في أعماقه ، كان دياز يحارب فكرةً أكثر من محاربته لعدوٍّ: فكرة أن الله يمكن أن يكون سلاحًا سياسيًا . كان يكتب في دفتره سطورًا سرية : " بين المعبد والمدفع ، يموت الإنسان ".

الفعل العسكري هنا يتجاوز كونه خطةً على خريطة . هو امتحانٌ للهوية الإنسانية . الأزتك يرون في تمثال كوركون تجسيدًا للطبيعة ، للماء الذي يمنح الحياة ويستردها . أما الإسبان، فيرون في ذلك الحجر رمزًا للجهل الذي يجب كسره . بين النظرتين يتجلّى الصدام الحضاري في صورته العارية: لا حربَ بين جيشين ، بل بين نظامَي معنى.

الفلسفة تتكشّف حين نسأل: من الأحقّ بالحقيقة ؟ هل المنتصر وحده يملك روايتها ؟ وما إنْ كانت الحضارة تُقاسُ بالمدفع أم بالقدرة على الإصغاء إلى الآخر؟

كورتيز ، وهو يرسم خرائطه ، لم يدرك أنه يرسم حدودًا جديدةً للوعي الإنساني: أن القوة لا تقتل الأسطورة ، بل تخلق أسطورةً أخرى ، أسطورة المنتصر.

في نهاية المشهد ، يتّضح أن المعبد والبحر والخريطة ليست مجرد رموزٍ للغزو ، بل استعاراتٌ لرحلة الوعي ذاته. كوركون، في جوهره ، ليس صنمًا وثنيًا بل رمزٌ للضمير الجمعيّ الذي يحذّر من اغتصاب الأرض والروح. وكورتيز ، بذكائه وخداعه ، هو الإنسان الحديث في لحظة ميلاده الأولى: يحمل راية التقدم ، ويطوي تحتها نية السيطرة.

إنّ التاريخ لا يُكتب بالمدافع فقط ، بل بالأسئلة التي تظلّ بعد أن يهدأ الدخان . وما بين حجر المعبد وصفحات الخريطة ، نكتشف أن الصراع الأبديّ بين الإيمان والعقل ، بين الطموح والخوف ، بين الذاكرة والمستقبل ، هو ما يصنع جوهر إنسانيتنا.

فكلُّ خريطةٍ تُرسم على جدار التاريخ هي في النهاية انعكاسٌ لحلمٍ بشريٍّ قديم: أن نفهم العالم، أو نُخضِعه، أو نكفّر عن خطيئةٍ وُلدت معنا منذ أن نظر الإنسانُ لأول مرة إلى البحر وقال في نفسه : " سأعبره ، ولو احترقتُ في الطريق ".

مغامرة العبور إلى المجهول

كان البحر ساكنًا تلك الليلة ، حين أبحر كورتيز إلى ترينداد بأسطوله الصغير، يطوي في أعماقه أكثر من طموح. لم تكن الرحلة مجرد تحركٍ عسكري ، بل كانت مقامرة روحية وتاريخية كبرى ، أراد بها الرجل أن يصنع مجده خارج ظل فيلاسكيز ، حاكم كوبا الذي ظل يلاحقه كظلٍ غيورٍ لا يرحم. هناك ، في ميناء ترينداد ، بعيدًا عن الرقابة ، أعاد كورتيز تنظيم كل ما أهمله من استعدادات : أصلح السفن ، زاد من عدد المدافع ، راجع حساباته مع القدر ، كمن يتهيأ لزواجٍ بين الحرب والموت.

قال القس دباز وهو يطالع الأفق المشتعل بشمس البحر الكاريبي :

كيف كان يتوقع أن ينتصر على شعبٍ تعداده مليونان من البشر بعددٍ لا يتجاوز بضع مئات من الرجال ؟

ابتسم كورتيز ابتسامةً حادة تشبه لمعان الخنجر ، وقال في داخله :

الإيمان لا يُقاس بالعدد ، إنما بالنار التي تسكن القلب.

كان القس يستعيد المشهد كأنما يراه أمامه : خمسمائة متطوع إسباني ، وثلاثة عشر جوادًا تتنفس القلق فوق سطح السفن ، وعشر مدافع ثقيلة وثمانية صقور معدنية تنذر بالعاصفة . كان معهم هنودٌ من كوبا ، اثنان وثلاثون من رماة النبل وعشرون من أمهر حملة الرماح ، ومائة بحارٍ يعرفون البحر كما يعرف الكاهن صمته . صورةٌ تجمع بين الحماسة والتهور ، بين العقل والخرافة.

قال القس دباز متنهداً:

أعتقد يا سيدي أن الحملة كانت مغامرة بكل معنى الكلمة ، أسباب الفشل فيها أكثر من أسباب النجاح ، لكنها كانت مغامرة الإنسان في وجه المستحيل ، مغامرة من يؤمن أن الله نفسه يراقبه من وراء الغيوم.

وفي يوم التاسع من نوفمبر عام 1518، كان الأسطول على أهبة الرحيل نحو أراضي البوكاتان . غير أن رسالةً جاءت لتقلب كل الموازين:

"لقد فشلت خدعتك يا كابتن كورتيز،" كتب فيلاسكيز بغلظة المنتصر، "فزوجتك عادت من مدريد بأمرٍ صريح من الملك، بتكليفي أنا بقيادة الحملة لغزو المكسيك. عدْ فورًا بالسفن إلى كوبا".

تجمدت الكلمات في يد القائد.

في تلك اللحظة ، انقسم كورتيز إلى رجلين : أحدهما ابن الإمبراطورية الذي يخاف غضب الملك ، والآخر روح المتمرد الذي يريد أن يكتب اسمه في التاريخ حتى لو كان الحبر من دمه . وقف أمام البحر كمن يحاكم نفسه ، وترددت في أعماقه أصواتٌ متضاربة :

هل أعود وأقبل الهزيمة ؟ أم أُبحر رغم أنف الملك ؟ هل أنا خادمٌ لملكٍ في مدريد ، أم رسولٌ لإلهٍ غامضٍ يدفعني إلى المجهول ؟

لم يكن القرار عسكريًا فحسب ، بل وجوديًا . لقد رأى كورتيز في البحر مرآةً لروحه ، وفي الموج المتلاطم صورةً للقدر . كان يعرف أنه إذا عاد ، سيموت في الظل ، وإذا أبحر ، فسيولد في النار.

قال القس دباز بعد صمتٍ طويل:

ذلك الرجل لم يكن مجرد قائد ، بل كان يرى نفسه أداةً في يد التاريخ ، وربما في يد الرب نفسه.

وبينما كانت السفن تتهيأ للرحيل ، كان كورتيز يهمس في صلاته:

أيها الرب، إن لم تكن معي ، فاجعل الرياح في وجهي ، لأعرف أني أسير بإرادتي لا بإرادتك .

في تلك اللحظة ، بدت الحملة وكأنها مسرحٌ تتصارع فيه قوى الإيمان والطمع ، البطولة والخداع ، الحلم والجنون. لقد كانت إسبانيا آنذاك أمةً خرجت من ظلامٍ طويل ، رازحةً قرونًا تحت الاحتلالات المتعاقبة: الفينيقيون ، القرطاجيون بقيادة هانيبال ، الرومان ، ثم العرب الذين صهروا الأرض بثقافتهم ، فنهض الإسبان من رماد الإمبراطوريات الماضية حاملين في صدورهم عقدة التاريخ ، يبحثون عن ممالك جديدة يغزونها كي ينسوا ماضيهم المهزوم.

قال المؤرخ جورج بابلون في وصفه العميق:

“ من العجيب أن حضارات المايا والأنكا والأزتيك، التي أقيمت على أراضي الإمبراطورية الإسبانية لاحقًا ، لم تكن حضارات خاملة . بل على العكس ، كانت أكثر نضجًا وسموًا من حضارة الغزاة . كل ما امتاز به الإسبان حينها كان المدفع ، سلاحهم الوحيد أمام حضارةٍ تجاوزتهم في العمارة والزراعة والفن والروح ”.

لكن كورتيز لم يكن يرى في تلك الحضارات إلا اختبارًا لقدره . كان يظن أن المدفع يمكن أن يُسكت الأغاني القديمة للشمس ، وأن الصليب يمكن أن يُبدد أسرار الآلهة الحمراء في معابد الأزتيك . في أعماقه ، كان يعلم أن الحرب ليست بين حضارتين ، بل بين صورتين للإنسان: الإنسان الذي يعبد القوة ، والإنسان الذي يقدّس الأرض.

هكذا أبحر كورتيز ، ليس بأسطوله فحسب ، بل بروحه الممزقة بين الطاعة والعصيان. كانت رياح الكاريبي تدفعه ، وكان القدر يفتح له أبواب المجهول . ومن تلك اللحظة ، بدأ التاريخ يكتب فصلًا جديدًا ، فصلًا من الدم والذهب ، من المجد والخطيئة ، فصلًا سيذكره العالم باسم : **غزو المكسيك** .

يوميات قسٍّ شاهد الفتح

سألتُك يا بنيّ حين جلسنا تحت حاجز الظل في دكان القرية :

« ما الذي أشعل النزاع بين الكابتن فرناندو كورتيز وبينكما ، أنت وأخوك القسّ أنريكو موجير ؟ »

فجلستُ أمامك كأنما أستدعي شريط الأحداث من ذاكرةٍ قديمة ، وأفتح دفاتِي التي كتبتُ فيها ما رأيتُ وما سمعتُ، لا سيّما لأنَّ الحقيقة عندنا - نحن رجال الدين - لا تكتفي بأن تُقاس بموازين القوة ، بل تُقاس بموازين الضمير.

كنتُ أرمقُ تلك الوجوه التي تصدَّعها الغبار والملح ، فأبصرتُ الفعل منذ لحظةٍ مبكرة : كورتيز لم يكن رجلاً عسكريًّا فحسب ، بل كان روحًا تتغذّى على الرهان والمخاطرة ، وعلى أن يكون اسمه عينًا تُرى بها البطولة أو الخطيئة . لقد جاء إلى البحر كما يأتي العاشقُ للمجهول - مصرًّا على أن يكتب له التاريخ سطراً لا يُمحى . أما نحن فأتينا حاملين رغيف الإنجيل وكتاب التراتيل ، نحملُ على أكتافنا مهمة دعوة النفوس ، وإشعال شمعة في الظلماء.

في هافانا بدأت الحكاية ، ثم توارت فيها مرايا السلطة . حاكم كوبا فيلاسكيز أرسل أوامره ، وزوجة كورتيز سعت للحصول على إذنٍ ملكيٍّ ليقوده الملك شارلكان - وقد فشلت في ذلك. فكان قرار كورتيز أخطر من طيش : عصيانٌ مزدوج ، ضدّ الملك وضدّ الحاكم . خرج الأسطول من هافانا متجهًا إلى ترينداد ، ومن ثم ارتكزت سفينتنا في ميناءٍ رطبٍ ، ومضت الرياح تحملنا إلى اليوكاتان - بداية أرض الأزتيك كما قال هو - وقلوبنا مدفوعة بين الرجاء والمخاوف.

تخيّلْ معي مشهدَ السفينة ليلاً : نورُ الأنجمِ يترنّح فوق أمواجٍ سوداء، والرجال يختلطون بهمس المدافع ، ولكنَّ هناك ما لم يصدّقنا : في غرفة قيادة السفينة ، في زواياٍ خاصة ، كُنتُ أرى نساءً هنديات من كوبا ، أكثر من

عشرين بنفسها، وبعض إسبانيات مهاجرات كذلك . لم تكن هؤلاء مسافراتٍ بسيطات - كانت محجوزاتٍ في قمراتٍ مفصولة ، بعيدًا عن بؤبؤ أعين البحارة ، كما لو أنَّ لوجودهن غايةً مختلفة عن مجرد تلبية الحاجات العامة للسفينة . قَلتُ في نفسي : هل يُحتمل أن يكون قائدٌ بهذا الإصرار والجبروت قد أخذ معَه النساء لمتعةٍ خاصّة ؟ هل هذا أدبُ الفاتح أم إثمُ الطامع ؟

لم يكن مسموحًا لنا أن نتدخّل بالقوة ، لكنّ أخا لنا ، الأب أنريكو ، لم يَسكت. أمام الرجال والبحارة توجّه إليه الكلام وجهاً لوجه ، واشتدّت بينهما الحادثة . كورتيز ، بما يملك من نفوذٍ وطباعٍ حادّة ، صاح في القسّ موجير: «إما أن تلتزمَ بمهمتك - إقناعُ الأهالي بالمسيحية - أو أن تُحشى في قاع السفينة وتقيد !» لم يكن ذلك تهديدًا فارغًا ، بل كان سلاح رجل لا يهابُ إزاحة من يراه عقبةً أمام مشروعه.

ظننا أنَّ بداية الحملة ستكون فاشلة ؛ لكن التاريخ أحيانًا يثير غرائِب. حين بلغنا جزيرة كوزوميل، استقبلونا بودٍّ مبهر - شعبٌ يختلف في تسميته عن ألفاظنا : خليطٌ من شعوبٍ قديمةٍ ، من أهل اليوكاتان، قد لا يعرفون حتى تاريخ غزو أرضهم ، ولا الحديد ، ولا الجياد . كانوا نُقلاً لنا درسًا في البساطة والتراصّ الأخلاقي : قلتُ في دفاتري أنَّهم لا يعرفون الكذبَ كعادةٍ مقصودة ، وأنَّ نساءهم محتشمات ، يظهرن الوجه والكفين، وأنّ النظام الاجتماعيّ عندهم قائمٌ على قواعدٍ أخلاقيةٍ صارمة . لديهم مهارات في الحساب ، وطقوسُهم العبادية تستدعي احترامًا ودهشة.

هنا بدأ شيءٌ آخر: الأخ أنريكو استطاع - بطريقةٍ تظهَر عندي الآن كمشهدٍ من معجزات الاتصال - أن يُقنع بعضهم ، بواسطة المترجمين من هنود كوبا ، باعتناق المسيحية . أنشئت على أرض كوزوميل أول كنيسةٍ صغيرةٍ رحبت بالأصنام الجديدة . ذاك المشهد بدا لنا كحلقةٍ في مسرحٍ يتقاطع فيه التنوير مع السخرية : رجالٌ يحملون الصليب ، وآخرون يحملون السيوف ، وقلوبٌ تختلف بين من يتمنّى خلاص النفوس ومن يسعى لغنيمةٍ مادية.

حاولتُ - بضميرٍ مُنهكٍ - أن أُخفي انقسامَ المشاعر لديّ . كنتُ أرى في كورتيز شخصيةً مركّبة : مائع الكاريزما وقاطع الطريق الأخلاقي في آن. كان يُعجبني حدّة عزيمته حين يواجه العواصف ، ويُثير فيّ اشمئزازي حين يستخفّ بمبادئٍ إيمانيةٍ أو يستهين بكرامةِ الإنسان . أما موجير ، فقد

كان رجل صلاةٍ وتقوىٍ، لا يملك من شجاعته العسكرية شيئًا، لكنه امتلك حرقةً على هؤلاء الشعوب فراح يُنشدُ لهم الإنجيل بلسانٍ صدق حقيقيٍّ لا يكذب.

في إحدى الليالي ، إذ اجتمعت الأقدار ، خرجتُ أتراقصُ بين سطور الصراع الداخلي : «ماذا يعني أن تكون رسولًا في زمنِ سيفٍ ؟ » كان السؤال يجرح قلبي كندبة . كنتُ أُصارعُ شعورَي ولاءٍ وامتعاض : ولاءٌ للمهمة التي كلفتُ بها - تبشير النفوس - وامتعاضٌ من الأسلوب الذي يفرضه الغزاة . إذًا ، كيف نوائم بين دعوةٍ إنجيليةٍ تعبّر عن محبةٍ ومغفرة ، وبين واقعٍ تاريخيٍّ مفروضٍ بالعنف ؟

الحوار بيننا - بيني وبين كورتيز - أخذ أشكالًا مختلفة : في الصباحات كان يمرّ بجانبي كأنه يفحص شراعًا ، لا إنسانًا ؛ في المساء كان يبتسم ابتسامةً قصيرة ثم يلتفت عنّي . أما أنريكو فكان يواجهه بعنفٍ ناعم : « يا كابتن، إنَّ مهمتنا ليست مجرد إعادة ترتيب الوجوه على الخريطة، بل هي إيقاظ ضمائرهم، لا تسقيط أرواحهم .» فردّ كورتيز وهو يقرب وجهه منه كمن يهمس لعدوٍّ: « أيها الأب، لكل منا مهمة . دعوا الكنائس لكَ وللتعاليم ، ودعوا الفتح لي . لا تُرِد أن تُحرمنا من ما سنورثه لهم ؟«

تكرّرتُ في نفسي كلمة «توريث» وكنتُ أرى خلفها سحابةً من الطمع ؛ لأنّ إرثَ الرجل كان في معظم الأحيان أسمًا يُحفر على الخريطة ، وليس قلبًا يُدفن بالحبّ . أما نحن فكنّا نحملُ مشعلًا هشًّا بين أيادينا ؛ كان علينا أن نحفظه من الريح ؛ لكن الريح كانت سيوفًا ورغبةً في السيطرة. وهكذا وُلدت العداوة في قلوبٍ كانت قد تعهّدت بأن تكون أوعية رحمةٍ لا أوكارًا للخصومة.

ثم أتت لقطة كوزوميل: نحن داخِلون إلى معبدهم ، والأهالي يقفون في صمتٍ كان يُشبه مجرى نَهْرٍ هادئ . أنا أنظر إلى الداخل وأشعر بضميرٍ ممزق : في تلك اللحظة ظنّ بعضنا أنَّ الكنيسة الصغيرة التي بنيناها على الجزيرة ستكون بدايةً لمصالحة ما ، وأنّ الغاية الروحية قد تُخمد نار العنف . لكن لعنة النوايا البشرية سرعان ما تبينت ؛ لأنّ الرجال الذين جاءوا معنا كانوا أقل حرصًا على التعليم من حرصهم على المكاسب . وجوهُ الكهنة والجنود تتقاطع ، لكن مساراتهما لا تلتقي.

كتبتُ لاحقًا في سجلاتي : « لم ترفع الكنيسةُ السلاح ، لكنها شهدت على الصراع بين صمت الله وصراخ الإنسان.» كان ذلك خليطًا من المأساة والأمل : مآسٍ لمن قُدِّر لهم أن يُصادر وطنهم ، وأملٌ لمن اعتنقوا إيمانًا بلا عنفٍ واضطراب.

من زاويةٍ نفسية ، أُعترف لك بأنني لم أكن محايدًا: كان في قلبي ميلٌ لأن أجعل من كلّ تجربةٍ ميدانيةٍ درسًا أخلاقيًا . كنتُ أريد أن أكتب ليس لمَجرد تسجيلِ الوقائع ، بل لأضع مرآة أمام وجوه التاريخ . كيف يخدع الرجلُ سيده ، وكيف يبرّر الغزاةُ أفعالهم أمام ضميرٍ مُغترب ؟ وكيف يتصالح الإنسانُ مع نفسه بعد أن دخلت عقوبته في جسد آخرين ؟

ختمتُ مذكّراتي بصوتٍ هادئ ، لأنّي أدركتُ أنَّ الكلمة وحدها ، حين تُكتب بصدقٍ، قد تكون آخر ملجأ لأرواحٍ تُركت على شواطئ التاريخ. لا أدّعي أنّي فهمتُ كلَّ شيءٍ، لكنّي شاهدتُ كيف استطاع الطمع أن يستلب قلب الفاتح ، وكيف استطاع الإيمان أن يصدّق ويعانق النفوس ، ولو لوهلةٍ قصيرة.

وهنا أنهي ما كتبتُه لكَ في تلك الأمسية : إنّ الصراع بين السيف والصليب لم يكن مجرد مواجهةٍ على الأرض، بل هو صراعٌ على معنى الإنسانية نفسها - وعلى سؤالٍ أبديٍّ : هل يمكن للحضارة أن تُعرف بقوة سيوفها أم بنبل قلوبها ؟

الحضارة كلمة اخترعنها لنداري فشبلنا و اطماعنا .

ظلّ المرأة بين المدافع والصمت

في ربيع عام 1519، كانت الرياح تحمل رائحة البحر والبارود معًا ، حينما غادر كورتيز جزيرة كوزميل متجهًا نحو سواحل اليوكاتان ، ذلك البرّ الغامض الذي تختبئ خلفه حضارة لم يعرف عنها الإسبان إلا الأساطير.

ان البحر يومها أزرقًا داكنًا ، ساكن الموج ، كأنه يتهيأ لصخبٍ قادم سيقلب وجه التاريخ في العالم الجديد.

المذبحة الأولى

حين وصلوا في الأول من مارس ، كانت أنباء وصولهم قد سبقتهم إلى الحاكم المحلي بأمرٍ من ملك الأزتيك مونتزوما نفسه . هناك ، على شاطئ " بونتونشان " ، كان في انتظارهم جيش منظم ، مدجج بالحراب والنبال ، واقفًا في صمتٍ مهيب كأنه يعرف أن القدر سيكتب له فصلًا من الدم . .

أمر كورتيز مساعده أجويلار قائلاً بحدة :

« أنزل المدافع من السفن « !

صرخ الأب دياز ، وهو يلوّح بيديه في وجه الريح والجنود:

« بحق السماء يا كابتن كورتيز ، لا تطلق المدافع ! هؤلاء بشر ، لا وحوش. ستكون مذبحة «!

التفت كورتيز إليه بعينين تلمعان تشعان غضبا ، وقال بصوتٍ جامد:

« لا تتدخل في عمل الأرض يا أب دياز ، فلا تتدخل في مملكة السماء «!

« سيدي ، دعني أحاول التفاهم معهم ، سوف أقنعهم و أبشرهم بالدين «!

« لا ! هذا أول صدام بيننا وبينهم ، ويجب أن يدركوا أني لم آتهم لألاعبهم النرد... المدافع يا أجويلار «!

دوّى صوت المدافع كالرعد ، وانشقت السماء عن صرخاتٍ بشريةٍ حارقة. يروي القس دياز في مذكراته :

» عند بونتونشان ، في العشرين من مارس عام 1519 ، وقعت أبشع مذبحةٍ عرفها التاريخ بعد مذبحة الليلة الحزينة «.

كان المشهد مروّعًا . الأجساد تتطاير في الهواء ، والأرض تغمرها الدماء . رجال الأزتيك يتساقطون كأوراق الخريف ، والقرية التي كانت تضجّ بالحياة قبل لحظاتٍ ، تحولت إلى رمادٍ وصمت . حاول الأب أنريكو أن يوقف المجزرة ، فرفع صليبه عاليًا بين صفوف المقاتلين ، لكنه سقط مضرجًا بدمائه بسهمٍ من رجال الأزتيك ، وبرصاصةٍ من صفوف الإسبان الخلفية نفسها.

تساءل دياز بعد أن عمّ السكون :

« كأنما قُتل الأب أنريكو عمداً ؟ هل كانت يد كورتيز وراء مقتله ؟«

أجاب بنفسٍ منكسر :

« لا أستطيع أن أؤكد ، فلم أرَ الجثة بعيني ، لكن كثيرين من رجالنا قالوا إن الرصاصة جاءت من الخلف... منّا نحن ، لا منهم «.

قتل في تلك المذبحة اثنا عشر ألفًا من هنود الأزتيك مقابل عشرين من الإسبان فقط . كانت النسبة كافية لتكشف وحشية الآلة الجديدة التي جلبها كورتيز معه من الغرب — مدافع الموت.

تقدّم كورتيز فوق أشلاء القتلى ، وكأن الأرض لم تشبع من الدم بعد ، حتى بلغ مدينة سوتلا . هناك أقام ثاني كنيسةٍ في اليوكاتان ، وهناك أيضًا التقى بالمرأة التي ستبدّل مسار الفتح الإسباني كلّه :**مالنتزان**.

كانت في العشرين من عمرها ، شابة من الأزتيك، جميلة القسمات ، عيناها سوداوان كليلٍ حزين ، وفي نظراتها خليط من الكبرياء والحنين . كانت أرملةً لأحد أشراف قومها الذين قُتلوا في مذبحة بونتونشان. حين وقفت أمام كورتيز ، لم تكن خائفة ، بل ساكنة كمن يعرف أن مصيره بدأ منذ تلك اللحظة.

قال دياز متأملاً :

« تلك المرأة ، كانت تحمل في ملامحها شيئًا من الغموض المقدس . و بين ضلوعها قلبٌ وثنيّ ، لكن على لسانها صلاةٌ مسيحية ».

اعتنقت مالنتزان المسيحية ، وصارت تُعرف باسم **دونا ماريا** ، لكن روحها ظلت معلقة بين عالمين : عالمٍ قديمٍ يعبد الشمس، وآخرٍ جديدٍ يعبد الذهب . كانت لغتها المزدوجة ، ومعرفتها بثقافة قومها ، سلاحًا بيد كورتيز ، فهي المترجمة ، والمستشارة ، والظل الذي لا يفارقه.

سألت القس دياز بصوتٍ متردّد :

« لكن، أهي دونا ماريا التي يذكرها المؤرخون ؟»

« نعم ، هي نفسها. مالنتزان ودونا ماريا اسمان لامرأةٍ واحدة ».

« خانت قومها وملِكها إذًا ؟»

« ربما... لكنها أحبّت كورتيز حبًّا لا مثيل له. ضحّت من أجله بكل شيء: بالشرف ، وبقلبها ، وبأمتها. ولذلك لا تزال حتى اليوم تُلعن في بعض الكنائس النائية في اليوكاتان والمكسيك ».

X

في قلب كورتيز لم يكن مكان للحب ، بل للطموح فقط. كان يرى في مالنتزان وسيلته لفهم عالمٍ غريبٍ ، مفتاحًا لفتح المدن ، وجسرًا يعبر عليه نحو المجد والذهب . ومع ذلك ، كانت هي ترى فيه خلاصًا شخصيًا ، مزيجًا من الإعجاب والقدر ، ربما ظنّت أنه سيعيد بناء عالمها من رماده ، لكنها اكتشفت أنه جاء ليحرق الرماد نفسه.

قال دياز في مذكراته بعد سنين:

» كورتيز لم يعرف سوى مصلحته ، أما مالنتزان فكانت تعرف الحب حتى الهلاك . هي وهبت نفسها لإنسانٍ لا يرى في الآخرين إلا سلّمًا يصعد عليه نحو الخلود الزائف ».

كان صوتها الداخلي يهمس في الليالي :

" هل أنا خائنة ؟ أم أنني فقط أحببت عدوي ؟"

ذلك السؤال ظلّ يطاردها حتى آخر أيامها .وفي لحظة موتها ، كما رُوي، قالت لأحد الكهنة:

» أخبرهم أني لم أخن قومي ، بل أحببت رجلاً حسبته إلهًا، فإذا به لا يؤمن إلا بنفسه«.

X

من بونتونشان إلى سوتلا ، من صمت المدافع إلى دموع مالنتزان ، كُتب فصلٌ من التاريخ بلونٍ لا يمحوه الزمن . كان لقاء كورتيز ومالنتزان لحظة التقاء حضارتين، وانكسار إنسانٍ بين الحب والخيانة.

لم تكن مالنتزان مجرد امرأة خانت أو أحبت، بل كانت مرآةً عاكسة لصراعٍ أبدي بين الروح والقوة، بين الإيمان والدم، بين أن تكون جزءًا من التاريخ أو ضحيته.

وفي نهاية المطاف ، بقي كورتيز خالداً في كتب الغزو، وبقيت مالنتزان خالدة في ضمائر النساء اللواتي أحببن في غير أوانه ، ودفعن ثمن الخطيئة وحدهن.

حوار بين الغزاة والقدر

كان الملك مونتزوما يعيش في قلب عاصمته العظيمة **تينوتشتيتلان** ، تلك المدينة المعلقة فوق الماء ، التي بدت كحلم غامض وسط بحيرة تكسكوكو . تحيط بها القنوات والحدائق المعلقة والمعابد الهرمية التي تتصاعد نحو السماء كأنها أذرع من حجر تريد لمس الآلهة . كان الملك يعيش في قصره المهيب ، محاطًا بخدمه وكهنته ومستشاريه ، يتابع أخبار الغزاة البيض الذين هبطوا على شواطئ بلاده البعيدة في **يوكاتان** ، دون أن يولي الأمر عناية كبيرة . في ظنه أن أولئك الغرباء سيكتفون بالنهب والسرقة ، ثم يعودون أدراجهم إلى جزيرتهم كوبا، حيث جاءوا.

لكن الغزاة لم يكونوا عابري سبيل ، بل رجالاً يحملون في صدورهم طموح الممالك الأوروبية كلها ، وعلى رؤوسهم خوذات تلمع تحت شمس المكسيك ، وفي أيديهم مدافع تصرخ كالرعد . لم يكن مونتزوما يدري أن هؤلاء جاؤوا ليبقوا ، لا ليرحلوا.

أرسل الملك إلى كورتيز مندوبًا يحمل رسالة ود وتحذيرًا خفيًا . دخل المندوب خيمة القائد الإسباني بوقار الأزتيك المعروف ، وقال بصوت مهيب:

" لقد جئت من لدن ملكنا العظيم **مونتزوما بن كوروكون** ، سيد الممالك وأمين أسرار الآلهة ، أحمل إليك تحية وسلامًا . إن مولاي الملك يرحب بك ضيفًا في أرضنا ، ويتمنى لك إقامة طيبة وعودة سعيدة إلى وطنك البعيد ، كوبا ".

ابتسم كورتيز ابتسامة فيها من الكبرياء أكثر مما فيها من الود ، وقال للمندوب بنبرة مغرورة :

" أيها الرجل، عد إلى ملكك وقل له إنني جئت لا بصفتي ضيفًا بل رسولًا من أعظم ملوك الأرض ، الملك **شارلكان** ، سيد إسبانيا وإمبراطور أوروبا . جئت لأبقى ، لا لأرحل ".

تغير وجه المندوب للحظة ، لكنه أخفى اضطرابه وأجاب بهدوء:

" أيها القائد العظيم ، إن مولاي لا يريد الحرب ، فما حاجتكم في أرضنا ؟ أهي الذهب ؟ الألماس؟ إننا نرى على رؤوس رجالكم أطباقًا لامعة من الحديد وسنملؤها لكم ذهبًا لتعودوا راضين ".

قال كورتيز بلهفة لافتة:

"تملؤون خوذات جنودي بالذهب ؟ لا شك أن لديكم أطنانًا منه ؟"

رد المندوب بتحفظٍ دبلوماسي:

"ليس كما تظن، أيها القائد . لقد قلّ عدد العبيد الذين يعملون في المناجم ، لكننا سنعطيكم ما لدينا من ذهب نقي عربون صداقة ".

ابتسم كورتيز وقال بخبث:

" حسنًا، ابقَ معنا حتى نحسب القدر الذي يرضينا قبل أن تعود إلى مليكك .

X

وفي مذكرات القس **برنار دياز** ، أحد رفاق كورتيز ، نقرأ حديثًا مثيرًا دار في تلك الليلة، حين سأله أحد الضباط الإسبان:

" هل أعطاكم مونتزوما ما طلبتم من الذهب ؟"

فابتسم دياز بحزن وقال:

"كورتيز لم يكن يريد الذهب وحده يا سيدي ، بل الأرض والروح معًا. أراد أن يملك الشمس التي تشرق على المكسيك نفسها ".

سأله الضابط:

"ولماذا أبقى على المندوب إذن؟"

فأجاب دياز:

" أراد أن يصنع له مشهدًا لا يُنسى ، عرضًا للقوة والرعب. أمر أن يُقاد المندوب في اليوم التالي إلى الساحة الكبرى ليرى فصائل الجيش تمر أمامه في استعراضٍ صاخب ، يتقدمها الفرسان على الجياد ، تتلألأ سيوفهم تحت الشمس كأنها ألسنة لهب ، وتتعالى أصوات المدافع التي لم تعرفها آذان المكسيك من قبل . أراد كورتيز أن يزرع الخوف في قلب الملك قبل أن يراه ".

X

وفي المقابل، كان **مونتزوما** في قصره يتأمل ما يجري كمن يقرأ نبوءة قديمة تتحقق أمامه . في أعماقه قلق غامض ، يطارده منذ سنوات ، قيل له إن آلهة الأزتيك غاضبة ، وإن رجلاً أبيض البشرة قادم من الشرق

سيضع نهاية لعهدهم . لم يكن يعرف إن كان الغازي القادم هو إله أم شيطان ، لكنه كان يوقن أن الساعة اقتربت.

وقف الملك أمام كهنته في المعبد العظيم وسألهم بصوتٍ حائر:

" أهي عودة كويتزالكواتل الحبار ؟ الإله المهيب الذي وعد بالرجوع في هذا العام ؟ "

تبادل الكهنة النظرات بصمتٍ ثقيل، ثم قال أحدهم:

" يا مولاي، العلامات كلها تشير إلى أن النبوءة تتحقق. النجوم تغيّرت ، والرياح حملت رماد الغرباء ، والدماء التي سفكت على المذابح لم تعد ترضي الآلهة ".

X

ذلك المساء، جلس مونتزوما وحده في قصره ، يحدّق في تمثال الإله ذي الريش الأخضر ، وتتناوب في ذهنه الصور : وجه كورتيز الغريب ، لمعان الذهب في أيدي الإسبان ، وصرخات الحرب القادمة . في داخله صراع بين الإيمان والشك ، بين إرث الملوك والخوف الإنساني من المجهول.

كان يسمع في داخله صوتًا خافتًا كأنما ينبعث من أعماق الأزمنة:

" إن الذي لا يحمي أرضه بالحديد، سيحميها بالدموع "

أما كورتيز، فقد نام تلك الليلة وهو يظن أن النصر بات قريبًا ، لم يكن يدرك أنه يفتح بابًا لن يغلق ، بابًا ستدخل منه أوروبا إلى قلب القارة الجديدة ، تحمل معها دينًا جديدًا ودمارًا عظيمًا . وبينما كان المدافعون عن تينوتشتيتلان يصلّون لآلهتهم القديمة ، كانت مدافع الإسبان تستعد للحديث بلغة الحديد والنار.

X

وهكذا، لم تكن **موقعتا بونتونشا وسوتلا** مجرد هزيمتين عسكريتين ، بل بداية انهيارٍ روحي لحضارةٍ كاملة في القارى الجيدة . أما رد فعل الملك مونتزوما ، فلم يكن الغضب أو المقاومة ، بل ذلك الصمت العميق الذي يشبه استسلام العارف بالقدر. كأن التاريخ كان يُكتب أمامه، لا بيده، بل بيد رجالٍ جاءوا من وراء البحر ليعيدوا رسم ملامح العالم .من جديد .

الأسطورة التي هزمت الملك

في ليلةٍ مكسيكيةٍ خانقة ، كانت ألسنة النيران تلتهم أطراف الغابة ، وأصوات الطبول البعيدة تتردد في السكون كأنها أنفاس الأرض نفسها . جلس كورتيز في خيمته عند حافة المعسكر الإسباني ، يحدّق في وجه عشيقته الهندية **مالنتزان** ، التي كانت تجلس قبالته ، عيناها تلتمعان كجمرتين في الظلام ، وصوتها ينساب كالماء على الصخور ، يحمل شيئًا من الغموض وعبق الأساطير.

قال كورتيز في خبثٍ ساخر:

" حدثيني يا مالنتزان عن الملك مونتزوما ، ما سرُّ هيبته ؟ ما الذي يجعل قومك يركعون أمامه كأنه إله ؟"

ابتسمت بخفرٍ وأجابت بصوتٍ متهدّج بين الإيمان والحلم:

"مونتزوما، يا حبيبي ، هو أقوى و أبهى ملوك الأرض ، طويلٌ ، مهيب الطلعة ، أبيض البشرة ، يسطع وجهه كالشمس حين تشرق على جبال المكسيك ".

رفع كورتيز حاجبيه دهشةً وقال:

" أبيض البشرة ؟ ولكن جميع أهالي المكسيك سمرٌ أو حمرُ الوجوه "!

ضحكت ضحكة قصيرة فيها مرارة الحكمة وقالت:

" ومن قال لك إن مونتزوما من أهل المكسيك ؟ "

تقدّم نحوها بخطوة ، كمن يواجه لغزًا جديدًا :

" أهو من أوروبا إذن ؟ "

أجابت مترددةً ، بعينين تحاولان البحث في الذاكرة:

" لا أعرف أين هي أوروبا التي تتحدث عنها ، إلا إذا كانت تعني بلاد الشرق ، بلاد الآلهة ".

" الشرق؟ ولكن أوروبا تقع شرقي بلادكم "!

نظرت إليه في سذاجةٍ طفولية وسألته:

" وهل تعيش الآلهة العظمى في أوروبا ؟ "

" الآلهة ؟"!

"أجل يا حبيبي ، فالملك مونتزوما هو ابن الإله كوكورن ، أحد كبار آلهة الشرق ، واسمه الحقيقي كوتزاكو ، الثعبان ذو الريش الأخضر . جاء على سفينةٍ يملكها الإله الأكبر تلابلان الأحمر ، وغسل جسده في بحيرة تركوكو ، ثم نصّبه ملكًا على المكسيك كلها ".

ضحك كورتيز في سخريةٍ واضحة ، وقال وهو يملأ كأس النبيذ :

" أسطورةٌ رومانسية لا أكثر ولا أقل يا مالنتزان ، خرافةٌ جميلة تصلح للأغاني والطقوس "!

لكنها انتفضت كأنما طُعنت في كبريائها ، وقالت في حزمٍ طفولي :

" كلا ، كلا ، بل هي الحقيقة التي يعرفها الناس جميعًا ! ومنذ ذلك اليوم ، يحكم مونتزوما المكسيك بعد أن شيّد عاصمته **نتونشتلان** فوق مياه البحيرة ، مدينةٌ عجيبة يا حبيبي، كأنها زهرة اللوتس طافية على وجه الماء ".

أمال رأسه باستهجان وقال :

" مدينة فوق الماء؟ كيف يتنقّل الناس فيها ؟ "

ابتسمت بفخرٍ قائلٍ أسطوري :

" بالقوارب الصغيرة ، والمياه تجري بين الشوارع كأنها عروق المدينة . أما قصر مونتزوما ، فهو تحفةٌ من الرخام والذهب ، يطل على البحيرة كأنّ الآلهة بنتْه بيديها ".

سألها كورتيز في دهشةٍ خافتة :

" وهل دخلتِ هذا القصر يا مالنتزان ؟ "

أطرقتْ ثم قالت بصوتٍ حالم:

" أجل، أخذني زوجي ذات يوم إلى هناك ، لحضور حفلٍ من حفلات الملك . كنتُ صغيرةً ، أرتجف بين النساء كعصفورٍ في يد الريح ، ورأيتُ مونتزوما واقفًا على عرشه ، مهيبًا كجبل ، تحيط به الأبخرة المقدسة وعبق البخور ، يلمع تاجه كالشمس فوق رأسه ".

سكتت قليلاً ، ثم التفتت نحوه وسألته بجرأةٍ خجولة :

" هل أنت متزوج يا كورتيز ؟ "

ابتسم ابتسامةً مترددة :

" أجل ، لي زوجة في إسبانيا ".

قالت بصرامةٍ غير متوقعة :

" إذن لن تستطيع أن تتزوجني ، فملك المكسيك وحده له زوجة واحدة ، ومن يخالف ذلك يُشنق . لكن من حق الرجل أن تكون له أكثر من **أم ولد** . عن قريب ، سأكون أم ولدك يا حبيبي ".

تنهّد كورتيز في ضيقٍ وهو يتصنع الجفاء :

" دعينا من هذا الآن يا مالنتزان . حدثيني عن مونتزوما ، عن تلك الأسطورة التي تربط مصيره بالبيض ".

قالت بصوتٍ منخفضٍ كأنها تنقل نبوءة قديمة :

" لقد قلت لك إن أباه الإله موتزاكو ، الثعبان ذو الريش الأخضر ، قال له يومًا : ستبقى ملكًا حتى يأتي البيض الذين يحملون آلاتٍ تُطلق الرعود ، فيأخذون منك ملكك ، وتعود أنت إلى الشرق حيث مملكتك الأولى ".

شهق كورتيز وقال وقد تلألأت عيناه بوميض الطمع :

" الآلات التي تطلق الرعود ؟ تعنين المدافع التي نحملها ؟ "

" أجل يا حبيبي ، هي نفسها. هكذا تقول النبوءة ".

ساد الصمت لحظة ، كأن التاريخ توقف ليستمع. ثم اقترب منها وهمس في حماسةٍ خبيثة :

" هل تعنين أن الملك مونتزوما يصدق هذه الأسطورة ؟ "

"ليس مونتزوما وحده ، بل كل أشراف المكسيك . هم يترقبون مجيء البيض كمن ينتظر قدره ، لا كعدوّه ".

ابتسم كورتيز ابتسامة المنتصر قبل الحرب وقال متهكمًا:

" بحق السماء، لقد هزمناه قبل أن نحاربه ! هزمناه بأسطورته ، قبل أن يرى بنادقنا التي تُطلق الرعد "!

X

كتب القس **دياز** بعد سنوات في مذكراته:

" كان للأسطورة أثرٌ عميق في نفس مونتزوما ، فقد عاشها كحقيقة ، لا كرمزٍ شعري . كان يقول في فخرٍ وطيبةٍ عجيبة :*أنا ابن الإله الأكبر مورموت ، اسمي هنا في المكسيك مونتزوما ، وفي الشرق اسمي كوتزاكو ، الثعبان ذو الريش الأخضر. لكن حين يأتي صاحب آلات الرعد ، سأعود إلى مملكتي في الشرق ، وأوصيه أن يكون رحيمًا بشعبي* ".

يقول أحد الجنود الإسبان :

" كان يتحدث إلينا كمن يرى مصيره مكتوبًا أمامه ، لا يقاتلنا كعدوٍّ بل كرسولٍ من القدر . لم نكن نحاربه بقدر ما كنا نؤدي نبوءةً قديمة ".

ضحك كورتيز حين سمع القصة ، وقال ساخرًا:

"لم يكن يدري أن صاحب آلات الرعد الذي ينتظره ، هو أنا ، الذي سيقضي عليه ".

لكن القس دياز تمتم متأملاً:

" وهل يمكن الجزم بذلك يا سيدي ؟ ربما لم يمت مونتزوما ، ربما عاد حقًا إلى الشرق كما تقول الأسطورة . إن التاريخ لا يحكي نهاية الملوك الذين يولدون من رحم الآلهة ".

ساد الصمت ، وبدا الليل ثقيلاً كأنه يحمل سرًّا لا يريد البوح به . في تلك اللحظة ، كان كورتيز ينظر إلى الأفق حيث كانت نار المعابد المكسيكية تشتعل فوق الجبال ، وتختلط أصوات الطبول بدويّ المدافع القادمة.

أحسّ بشيءٍ غريبٍ في صدره ، كأن الأسطورة التي سخر منها بدأت تنبض في عروقه . تساءل في داخله :

" أيمكن أن يكون في كلامها ذرة من الحقيقة ؟ أيمكن أن أكون أنا الإله الأبيض الذي وعدت به النبوءة ؟ أم أني مجرد أداةٍ في لعبةٍ أزلية بين البشر والآلهة ؟ "

كانت **مالنتزان** نائمة إلى جواره ، وجهها المسالم يشبه وجه الأرض التي خانتها لتخدم غازيها . نظر إليها طويلاً ، ثم تمتم بصوتٍ خافتٍ كمن يعترف لليل :

" يا ابنة المكسيك ، لقد كنتِ أنتِ الجسر بين أسطورتكم وحقيقتنا. بين الريش الأخضر والرعد الحديدي ".

ومع أول خيط للفجر ، كانت جيوش كورتيز تزحف نحو عاصمة مونتزوما . كانت الطبول تصدح من معابد الأزتك ، وكانت الأسطورة تفي بوعدها :

عاد الثعبان ذو الريش الأخضر إلى الشرق... لكن هذه المرة في هيئة رجلٍ جاء بالمدافع والنار ، ليهزم ملكًا قبل أن تبدأ الحرب .

وهكذا ، لم يمت مونتزوما في معركة ، ولم ينتحر كما قال المؤرخون ، بل ابتلعته أسطورته . غاب في ضباب التاريخ ، وترك خلفه سؤالًا لم يُجب عنه أحد:

هل الأسطورة هي التي صنعت الملوك ، أم أن الملوك هم الذين يصنعون أسطورتهم ليموتوا فيها ؟

بين الصليب والسيف

لننتظر في هذه النقطة حين نصل إليها أيها القس المحترم... ماذا بعد أن عاد مندوب مونتزوما إلى سيده حاملاً رفض كورتيز العودة إلى كوبا؟

كانت الليلة ملبّدة بالغيوم فوق معسكر سوتلا ، والهواء مشبع برائحة المطر والتراب والحديد ، حين استدعاني كورتيز إلى خيمته . كان صوت حرسه يمتزج بصفير الريح التي تمرّ فوق حرابهم كأنها نذير من السماء.

دخلتُ الخيمة ، فرأيته واقفاً أمام خريطة كبيرة تمتد من ضفاف الساحل حتى جبال المكسيك ، كانت شمعة واحدة تلقي ضوءها المرتجف على ملامحه الحادة ، فتبدو كأنها مشتعلة بالطموح . التفت إليّ وقال بلهجة عسكرية هادئة لكنها تنطوي على أمر لا يُردّ:

أيها الأب دياز ، ما رأيك بالذهاب على رأس وفد إلى مدينة تينوتشتيتلان، عاصمة الملك مونتزوما؟

أجبته متوجساً :

وماذا ستكون مهمتي هناك أيها القائد؟

ابتسم ابتسامة غامضة ، وقال وهو يرسم بيده دائرة على الخريطة حيث تقع المدينة وسط البحيرة:

مهمتك بسيطة في ظاهرها عظيمة في باطنها ، يا أبتِ. ستذهب في بعثة سلام لإقناع الملك مونتزوما بقبول الحماية الإسبانية على المكسيك ، تجنّباً لإراقة مزيد من الدماء. سيرافقك أجويلار ، مساعدي المخلص.

سألته بدهشة :

ولماذا اخترتني لرئاسة الوفد يا كابتن كورتيز ، وهناك من هم أكفأ مني لهذه المهمة ؟ لماذا لا تجعل أجويلار مكاني ؟

جلس على مقعده الجلدي ، وأشعل غليونه ببطء ، ثم قال وهو ينفث الدخان في الهواء الثقيل :

لقد نجحتَ حتى الآن نجاحاً باهراً في إقناع هؤلاء الوثنيين باعتناق المسيحية . صاروا يعملون معنا لا ضدنا . لعلّك تحرز نجاحاً كهذا في تينوتشتيتلان. إن أقنعتَ مونتزوما باعتناق المسيحية ، فستكون من أحبّ القساوسة إلى قلب قداسة البابا في روما والملك شارلكان. ومن يدري ؟ لعلك تغدو يوماً كاردينالاً... أو حتى بابا.

صمتُّ لحظة ، ثم قلتُ وأنا أنظر إلى عينيه كمن يريد أن يرى الحقيقة خلف القناع :

وإذا نجحت في ذلك ، هل تُبقي مونتزوما على عرشه ؟ هل تكفّون عن استعباد الأهالي وسلب ذهبهم ؟

ابتسم بخبث ، وقال في رياء واضح :

ولمَ لا يا عزيزي الأب ؟ إنني قانع بعشرة في المائة فقط من ذهب الأزتيك . قل هذا لمونتزوما ، ليعرف أننا لم نأتِ لنسلب الأهالي أموالهم ، بل لننقذ أرواحهم من الجهل والوثنية.

شعرت حينها أن كلماته تسقط في أذني كحبات رصاص. كان يتحدث عن الخلاص ، لكن عينيه تشعّان بجوع لا يشبع.

قلتُ وأنا أتابعه بنظرة مترددة :

ولماذا قررت أن يذهب معي أجويلار ؟ أليس وجوده ضرورياً هنا في سوتلا ؟

أجابني وهو يحدق في الخريطة من جديد :

ليرسم لنا تحصينات مدينة تينوتشتيتلان . إنه بارع في الرسم ودقيق كمهندس . نحن بحاجة إلى معرفة كل شيء عن العاصمة، فقد يستدعي الأمر ، إن رفض مونتزوما اعتناق المسيحية بالشروط التي تعرضها عليه ، أن نهاجم المدينة.

في تلك اللحظة، تسلّل إلى قلبي شعور مرّ بأنني لست رسول سلام كما أوهمت نفسي ، بل أداة بين يدي رجلٍ يسعى إلى تبرير طمعه بثوب من

الإيمان . لكنّي كتمت شكي ، وقلت في نفسي *لعلّ الله قدّر لي أن أكون جسراً بين دماء الغزو ونور الرحمة*.

كنتَ تدرك يا سيدي القس أن كورتيز كان يخدعك، أليس كذلك؟

قال محدّثي ، بعد أن أنصت إليّ طويلاً ، وعيناه تغوصان في وجهي كمن يفتش عن بقايا صدق.

أجبته في هدوء يشوبه الأسى :

بالطبع، يا سيدي ، كنت أدرك ذلك ، ولكنني كنت آمل فعلاً أن أكون رسول سلام بين مونتزوما والقائد كورتيز.

أطرق قليلاً ، ثم رفع رأسه وسألني :

وكيف استقبلكم مونتزوما ؟

تنفست بعمق ، وكأنني أستنشق من جديد هواء تلك المدينة الغامضة ، وقلت :

كان استقبالاً أشبه بالأسطورة. طرقنا أبواب المدينة عبر الجسر الحجري الطويل الممتد فوق مياه البحيرة، فبدت تينوتشتيتلان كجوهرة تتلألأ في قلب الماء . شوارعها مرصوفة ، وقصورها مطلية بالذهب ، والمعابد تعانق السماء كأصابع من حجر . خرج الناس لاستقبالنا بملابس زاهية وريش الطيور يغطي رؤوسهم كأجنحة ملونة . وعندما اقتربنا من قصر الملك ، عمّ سكون رهيب ، كأن الأرض نفسها حُبست أنفاسها.

تقدّم إلينا الملك مونتزوما بخطوات وئيدة ، مرتدياً عباءة من الريش الأزرق والذهب . كان وجهه مزيجاً من الهيبة والقلق . نظر إليّ بعينين عميقتين ، وقال مترجمه:

أهلاً بك، يا رجل الله، في أرض الآلهة.

في تلك اللحظة ، شعرت أنني أقف بين عالمين : عالم الإيمان الذي أحمله على كتفي ، وعالم الأسطورة الذي ينبض حولي . ترددت الكلمات في صدري قبل أن أنطقها:

جئتُك يا مولاي ، باسم السلام والمحبة ، أحمل رسالة من قائدنا كورتيز ، ومن الربّ الذي خلق السماوات والأرض.

لمعت عيناه ببرق خفي ، وسألني بصوتٍ هادئ يخفي غضباً ناعماً:

وهل إلهك هو ذاته الذي أرسل سفنك الحديدية، وسيوف رجالك التي تلمع بدماء أبنائي؟

تلعثمتُ ، وشعرت أن كل دروسي اللاهوتية لا تسعفني في تلك اللحظة . قلتُ بصوتٍ خافت:

إنهم لا يعرفون الله حقاً بعد ، يا مولاي ، ولكن رسالتي إليك هي أن الخلاص ممكن... وأننا لا نريد إلا السلام .

ضحك ضحكة قصيرة كأنها طعنة في صمت المكان ، وقال :

السلام لا يأتي مع الحديد والنار ، يا قسّ الغريب. أخبر قائدك أن عرشي ليس للبيع ، وأن ذهبنا ليس طريقاً إلى الجنة.

حين خرجتُ من عنده ، شعرت أنني خرجت من كهفٍ إلى ظلامٍ أعمق. كان أجويلار يسير بجانبي صامتاً ، يرسم بخطوط سريعة مداخل القصر والجسور والمعابد . نظرت إليه ، ففهمت دون كلام : لم نكن نرسم طريق السلام ، بل طريق الحرب.

تلك الليلة ، لم أنم. ظللت أستمع إلى أصوات المدينة النائمة وإلى نداء داخلي يمزقني بين الولاء والضمير. تساءلت في نفسي :*أأنا خادم الله أم خادم السلطان ؟ أأحمل الصليب أم أُخفي وراءه السيف؟*

مرت أيام ، وعاد كورتيز يستقبلنا بابتسامة النصر قبل أن يسمع ما جرى . وعندما رويت له كلام مونتزوما، قطّب حاجبيه وقال ببرود :

إذن لا مفرّ من إرادة الربّ... علينا أن نعلّمه معنى الإيمان بالسيف إن لم يقبله بالكلمة.

حينها، فهمت أن القدر قد كتب نهايتي بين صليبٍ يُرفع وسيفٍ يُشهر. وأن الحروب الكبرى تبدأ دوماً بخدعة صغيرة تلبس وجه الإيمان.

أما أنا ، فبقيت أحمل صراعي كجرحٍ لا يندمل : بين قسٍّ أراد أن ينقذ الأرواح ، وفاتحٍ أراد أن يملك الأرض.

وفي ليالي اعترافي الأخيرة ، ما زلت أسمع صوت مونتزوما يهمس في أذني :

"ليس كل من يتحدث باسم الله يعرفه".

أحسست أن مونتزوما يعرف الايمان الحقيقي ، يعرف أن الطريق إلى الله غير الطريق إلى الاستعباد .

مونتزوما بين البريق والوجدان

صدقني: لم يكن مونتزوما همجيًا متوحِّشًا كما صوَّره بعضُ المؤرِّخين الإسبان لتبرير فظائع كورتيز ورجاله . استقبلنا الملكُ استِقبالًا حضاريًا راقياً ، وخصَّص لإقامتنا بُنيةً تشبه القصر الفاخِر على بُعد نصف ميلٍ من قصْره . حين وقفتُ أولَ مرَّةٍ عند حوافِ تلك المدينة التي ارتكزت على صخورٍ ناتئة وسط بحيرةِ تزكوكو ، شعرتُ بأنني أمام حضارةٍ تُبنى بالحجرِ المصقول ، وبأيدٍ تُجيد فنّ البناء كما تُجيد الناسُ العيشَ في تناغمٍ مع الماء . القواربُ الصغيرةُ ملونةٌ زاهيةٌ ، والأسواق تقام على منصّاتٍ خشبيةٍ عائمة ، والوجوه على حياءٍ ووقارٍ، لكن وراء ذلك الوقار محاربون أشداءٌ ، وولاءٌ قويٌّ لملكهم: مونتزوما.

كنت أنظر ، وأحسب ، وأتذكّر كلَّ ما أراه ، فتنساب الأفكارُ إلى ذهني كجداولٍ صغيرةٍ : كيف يُركَّب هذا النظام ؟ كيف يتعايش الناسُ مع هذه الجزر القائمة فوق الماء ؟ ولماذا يُقَدَّس هذا الرجلُ إلى حدِّ الفداء ؟ وتأتي الإجاباتُ من صورٍ ومشاهدٍ : الأسواق التي تمتدُّ على امتدادِ الماء ، والنساءُ والأطفالُ الذين يُقَدِّمون بضائعهم لا بخِفةٍ بل باجتماعٍ مدنيٍّ ، والجنود الذين يمرّون بخطواتٍ مضبوطَةٍ ، وحديقةُ البلاط التي تبعثُ في النفسِ احترامًا لصنعةٍ وسياسةٍ متقنةٍ. ـــأهذا أيها العقل ؟ أهذا ما يُلقَّبونَه وحشيةً ؟ـــ أقول لنفسي ، وأصرخ في داخلي : ليس كلُّ ما يختلفُ عن ثقافتنا وحشًا.

وفي القصر المخصَّص لنا خادمٌ صغيرٌ اقترب ، ونبرةُ صوته تحملُ شائعاتِ المدينة ، وسألني بصراحةٍ مرِحةٍ وخفيةٍ من الخوف :

« هل صحيحٌ أن المرأةَ مالنتزانَ صارت عشيقةً لقائدِكم ؟»

توقَّفت طويلًا ، وأُصغي لصوتِ قلبي قبل أن أرد ، لأن السؤال ليس براءةَ سؤالٍ بل بندُ اتهامٍ ثقافيٍّ واجتماعيٍّ يُختبر به شرفُ امرأةٍ وعلاقةُ سلطانٍ . فقلتُ : «يا ولدي، عشيقةٌ كلمةٌ كبيرةٌ ؛ لنقلْ إنها تُؤدِّي مهامَّ خدميةً عنده.»

ردَّ الخادمُ بغضبٍ وكبرياءٍ منقوصٍ:

« كلا، زوجةٌ شريفةٌ من أشراف الأزتيك ؛ تفضّل أن تقتلَ نفسها على أن تعملَ خادمةً . إنها خائنة ؛ وسوف تخونُ قائدَكم كما خانت زوجَها.«

وجاءت الكلمةُ الأخيرةُ كأنها سيفٌ في صدرِ أُذنٍ:

« زوجُها قُتل في معركةٍ يا ولدي.«

أشعرُ الآن بعاصفةٍ داخليَّةٍ : من أين تأتي هذه الإساءةُ إلى امرأةٍ ذاقت الهجرَ والموت ؟ وأين العدالةُ في أحكامٍ تُلقى على لسانِ الخدمِ ؟ أحبُّ أن أصدقَ الإنسانيةَ أولًا ، ولكني أعرفُ أن الشائعاتِ تغدو بذوراً للعدوانِ . وبتلك النفس التي تَهوى البراءةَ ، همست له :

«أريد أن أصدقك يا سيدي؛ فلا يمكن أن يكذب رجلٌ وقورٌ مثلك، لكن الناسَ كلُّهم يظنُّون...».

هواءُ المدينةِ هنا يختلطُ بالهمسِ والارتياب.

وفي ساعةٍ لاحقةٍ التقيتُ القسّ دياز، وسألته بفضولٍ مهنيّ:

« هل قابلتَ الملكَ مونتزوما يا سيدي القسُّ ؟«

أجابَ بنبرةٍ مملؤها الإعجابِ والغمرةِ:

« طبعًا.«

فسألتهُ عن رده على مقترحاتِ الكابتن كورتيز—وهنا أُعيدُ ترتيبَ المقابلةِ بين مَلِكٍ مهيبٍ ومُرسَلينٍ من عالمٍ آخر. قبل أن ينقل ردَّه، طلبتُ من نفسي أن أرسمَ صورةَ الرجلِ بقلمي : مونتزوما في تلك الأيام في الأربعين من عمره ، وسيمٌ أنيقٌ بثيابٍ صوفيةٍ مطرَّزةٍ بخيوطِ الذهب ، وصوتٌ مُنغّمٌ ، ودِعابةٌ مسحوبةٌ على الحِكمة . هذا الوجهُ الذي يُقبِض على القلبِ وقد تراهُ تحترمه ليس لمظاهرِ الجلالِ فحسب ، بل لأن في نبرةِ صدقُ و طمأنينةٍ ونيةٍ لِعدلٍ. كان يعجبني ، وأُعجبتُ به منذ اللقاءِ الأول.

ثم أخبرني القسُّ بأنَّ مونتزوما رفض أن يستجيب لمحاولاتِه لإقناعه باعتناقِ المسيحية ، وأضاف بلهجةٍ تَحسُّر:

« كان يقول برقة وود: يا سيدي برنال دياز، كيف أعبدُ ربًّا غير أبي الإله الأكبر كوركون ؟ ماذا أقول له حين أعود إلى الشرق ؟ أقول له عبدتُ

ربًّا غيرك ؟ لا يا سيدي، لن تجد في المكسيك من يرضى بغير الإله الأكبر كوركون. ألم ترَ تماثيله في معابدنا ؟«

وكنتُ ألتقط الكلماتَ كما تتقطفُ يدُ طالبٍ الزّهراتِ النادرة:

« رأيتها أيها الملك في معابد كامبيش وكوزومبيل وبونتومشان وسوتلا ، ورأيت عليها دماءَ الضحايا الآدميين.«

هنا تلوحُ ملامحُ التباينِ الثقافي : نستنكرُ ذبحَ البشرِ ، وهم يرونُ في ذلك طقسًا قديمًا، لا يليق بنا أن نَسخرَ من قناعاتٍ حفرتْها قرونٌ في قلوبِ الناس. فكان ردُّ مونتزوما ، بحسبِ القسِّ ، مؤلمًا في بساطته :

" هذا مؤسفٌ يا سيدي القس ، فقد أمرتُ منذ عشرِ سنواتٍ بإبطال هذه العادة ، لكنَّ أهالي المناطقِ البعيدة عن العاصمةِ يخالفون أوامري أحيانًا. الحقيقة أيها السيد دياز، إنني لم أحكم المكسيك إلا منذ سبعة عشرَ عامًا فقط .«

ثم سألتهُ القسُّ:

« وقبلَ ذلك ماذا كنتَ تعمل ؟»

فأجابَ الرجلُ بصراحةٍ لا تكشفُ عن الغطرسةِ ولا عن التواضعِ الزائد:

« كنتُ بأمرِ أبي أعمل في استخراجِ الذهب من الجبال ؛ علّمني أبي كوركون أفضلَ الأساليب لاستخراجِ كمياتٍ كبيرةٍ في وقتٍ قصير ، ثم اختارني شعبُ الأزتيك ملكًا عليهم ، وأعتقد يا سيدي إنني أقمت بينهم العدلَ قدرَ استطاعتي. هل اشتكى أحدٌ مني ؟«

أجبتهُ صراحةً: «كلا أيها الملك؛ ما قابلتُ أحدًا إلا وامتدحك»،

كانت تلك شهادةَ الجمهورِ، وإن لم تكن دائمًا نافذةً على حقيقةِ القلوب.

وهنا أغوص أكثر: ماذا يعني أن تكونَ ملكًا في عالمٍ مترابطٍ ومعقّدٍ ؟ ماذا يعني أن تُحاولَ إلغاء عادةٍ متأصلةٍ بينما تبقى سلطةُ المقاطعاتِ وطبْعُ الناسِ تتحداك ؟ مونتزوما لم يأتِ من فراغٍ ؛ إنه نتاجُ تربيةٍ ، وأبٌ ، وتقاليدَ ، وسلطةٍ تَثقلُه ومسؤولياتٍ تُعَضّدُ قراراته . كان يحكمُ قبل أن يُلقَّبَ ، ويحكمُ بعد أن يُختارَ، وهذهَ المَلكيةُ ليست مجرد تاجٍ لامعٍ بل كفاحٌ يوميٌّ بين الرحمةِ والعُقوباتِ، بين التغييرِ والحفاظِ على النظام.

أُحبُّ أن أتصورَ مونتزوما وهو يقفُ في حديقةِ قصره ، يحدِّقُ في مياهِ القنوات ، ويسألُ نفسه : كيف أعلِّمُ شعبي أن يغيّر ؟ وكيف أُثبّتُ حكمَ العدلِ وأنا أُحملُ ثقافةً لها جذورٌ عميقة ؟ هل يكفي أن يأمرَ الملكُ ليُغيّرَ الناسُ ؟ أم أن في الأمرِ حاجةً إلى زمنٍ وطريقةٍ ولغةٍ تقنعُ القلب قبل العقل؟ وأنا أراقبُه ، أتذكّرُ أن التاريخَ ليس صفحتينِ : مُحتلٌّ ومحتَلّ، أبيضٌ وأسود؛ بل هو لوحةُ ألوانٍ متداخلةٍ . ومن هذا المنظورِ ، يكونُ مونتزوما رجلاً ذا وجوهٍ متعددةٍ : حاكمٌ عادلٌ في عيونِ رعاياه ، مدافعٌ عن تقاليدٍ يراها مقدسةً ، ومتواضعٌ أمام أصواتِ الضمائرِ التي تطالبهُ بالتحوّلِ. كذلك ، كان بريقُ الحضارةِ الأزتيكية كافياً ليبهرنا ، لكنّه لم يشفعْ دائمًا في مقابلِ الطموحِ الأوروبيّ الذي جاء يحملُ شيئًا من العسفِ باسمِ الدينِ والذهب .

في نهايةِ تلك الليلة ، حين جلستُ أدوّنُ ، ذهبت بي الكلماتُ إلى سؤالٍ واحدٍ متكررٍ : هل يستطيعُ إنسانٌ أن يدينَ آخرَ إنسانٍ من منظارِ حضارتِهِ وحدها ؟ أم أننا مطالبونَ بأن نَفهمَ الجذورَ قبلَ أن نَصدرَ أحكامًا قاطعةً ؟ الجوابُ أراهُ في عينَي مونتزوما حين التقيتُه: لا وحشيةَ بَذَرةً ، بل إصرارٌ على البقاءِ والعدلِ بقدرِ الإمكان . وربما تكمنُ المأساةُ في أن كلا الطرفين- من جهتنا ومن جهتهم – أخطأ ، لكن خطوطَ الخطأِ مختلفةٌ : نحنُ في العُنفِ والفتحِ باسمِ القداسةِ والبحثِ عن الغنى ، وهم في تقاليدٍ تُؤخذ بجديةٍ قد تبدو لنا لا إنسانيةً . بين هذا وذاك تمتدُّ المسافةُ التاريخيةُ التي لا تُسدُّ إلا بالحوارِ الصادقِ والاعترافِ المتبادلِ بالإنسانية .

وهكذا ختمتُ يومي في تلك المدينةِ العائمةِ بفكرةٍ واحدةٍ باقيةٍ : أن التاريخَ يجبُ أن يُقرأَ بعينٍ ترى الوجوهَ كلها – أبطالاً ، حكّامًا ، خدمًا ، نساءً - بلا تبسيطٍ يُنكرُ عمقَهم أو يُبدِّلُ ألوانَهم إلى أبيضٍ مقابلَ أسودٍ. ولم أزلْ ، وأنا أكتب ، أسمعُ همساتِ السوقِ ، وأنشودةَ الماءِ تحتَ الأرصفةِ الخشبية ، وصوتَ الملكِ ، وصوتَ الخادمِ ، وكلُّها تروي تفاصيلَ أكثرَ من كتابٍ واحدٍ سيكتبُها التاريخُ لاحقًا.

حوار بين ذاكرة القسّ والضمير

قال في هدوء ورقّةٍ تشبه نسمات المساء التي تمرّ بين أعمدة الدير القديمة:

من أحبَّ قومه يا سيدي أحبّوه ، وأنا أحبُّ قومي.

تأملته طويلاً ، وقد خيّل إليّ أن وجهه الذي لفحته شمس المكسيك قد احتفظ ببقايا من تواضع الرهبان الأوائل ، لكنه كان يحمل أيضاً حزن مَن رأى حضارةً تُباد. قلتُ له:

من الواضح ، يا سيدي القسّ ، أنك أحببتَ الملك مونتزوما.

أطرق برأسه قليلاً ، ثم أجاب بصوتٍ متقطّعٍ كأنه يخرج من بئرٍ عميقة من الذكريات:

لا أنكر ذلك ، كان رجلاً فريداً ، عظيماً في هيبته ، نبيلاً في سلوكه. كان يستدعيني إلى قصره كل يوم تقريباً ، لأكون إلى جواره في ساعات النهار الطويلة . وهكذا عرفتُه عن قرب ، ورأيتُ ما لم يره أحد من رجالنا. كان أنيقاً على نحوٍ يثير الدهشة ؛ ثيابه مرصّعة بالأحجار الكريمة ، وعطره يفوح برائحة زهورٍ لم أعرفها من قبل.

تنهّد القسّ ، وأخذ يمرّر يده على صليبه الخشبي ، ثم تابع قائلاً:

كان الملك يحسن استقبال أشراف بلاده . يدخلون قاعة العرش حفاةً، بعد أن يخلعوا نعالهم احتراماً له، ولا يغادرونها إلا راجعين القهقرى ، بظهورهم إلى الخارج. بعضهم ، يا ولدي ، كان يتمسّح بجدران القاعة ، يطلب بركتها كأنها جدران معبدٍ مقدّس.

قلتُ متعجّباً:

وكيف كان يتناول طعامه ، أكان على مائدةٍ مثلنا ؟

ابتسم القسّ ابتسامةً حزينة وقال :

أجل، على مائدةٍ بالغة الأناقة ، مغطاة بمفارش من الكتّان المطرّز بخيوط الذهب ، في وقتٍ كانت موائد ملوك أوربا من الخشب الخشن ، عاريةً إلا من آنيةٍ متواضعة . لقد كانت حضارة الأزتيك يا بنيّ متقدّمةً على نحوٍ لم يتصوّره أحد منّا.

ثم سكت قليلاً كأنه يحدّق في زمنٍ بعيد ، وأردف بصوتٍ خافتٍ كأنما يخشى أن يسمعه التاريخ نفسه:

كان من المؤسف أن كورتيز قضى على ذلك كله

ظلّ صوته يتهدّج وهو يروي:

عندما يجلس مونتزوما إلى مائدته المنخفضة، يحمل الخدم أوعية الطعام على ما يشبه الأفران الصغيرة . سألته ذات مرة وأنا أتناول الطعام معه :

ما هذه ؟

قال :

" هي أفران تحفظ الطعام ساخناً ، يا سيدي ، فنحن نكره أن تبرد اللحوم والمشويات قبل أن ننتهي منها ".

ضحكتُ وقلت:

مشوياتٌ يا صاحب الجلالة ؟

أجابني مبتسماً ، وعيناه تشعّان بفخرٍ ملكيٍّ نادر:

بالطبع ، إن طعامنا اليوم مميّزٌ إكراماً لك. لدينا الدجاج المشوي ، والبطّ البري ، والديوك الهندية المتبّلة بالأعشاب.

فقلت مازحاً:

يا صاحب الجلالة، ملوك أوربا سيغبطونني على هذه المائدة دون أدنى شك.

قال الملك وهو يحدّق في البعيد:

قل هذا لقائدك يا سيدي القسّ ، وقل له أيضاً إننا قومٌ محاربون أشدّاء ، وإننا قادرون على أن نرده إلى حيث جاء متى شئنا.

هنا صمت القسّ ، وبدت في عينيه شرارة خافتة من الذكرى ، ثم تمتم كأنه يخاطب نفسه:

آه يا بنيّ، لو أنه فعل... لو أنه قاوم... لكن الكبرياء قاده إلى الهلاك.

قلتُ محاولاً أن أغيّر مجرى الحديث:

أكان الملك يستخدم صحوناً من النحاس أو الحديد؟

ردّ القسّ بهدوءٍ واعتزازٍ خفيّ:

من الذهب يا سيدي.

فتحتُ عينيّ دهشةً:

صحونٌ من الذهب الخالص؟

أجل. كل أشراف البلاد يأكلون في صحافٍ من الذهب ، أمّا عامة الشعب ففي أطباقٍ من القصدير مطليةٍ بطبقةٍ رقيقة من الذهب . وبعد الطعام ، يقدم الخدم لنا الشكولاتة الساخنة في أكوابٍ من الذهب أيضاً.

قاطعته بلهفة:

انتظر، تقول الشكولاتة الساخنة ؟

ابتسم القسّ ابتسامةً فيها شيء من الدهشة على جهلي:

بالطبع يا ولدي، كلمة "شكولاتة" نفسها من لغة الأزتيك . كانت حبوبها تُزرع في أراضٍ مخصوصة ، يعتني بها الفلاحون كما يعتني الراهب بمحرابه . كانت مشروب الملك المفضّل . ومن فرط عنايته بجنوده ، كان يقدّم لهم كل ليلة ألفي كوبٍ من الشكولاتة الساخنة ، عربونَ حبٍّ ورعاية.

تأمّل القسّ لحظةً ثم أضاف :

كانوا يعرفون معنى الكرامة والولاء . لم تكن حياتهم همجية كما وصفناها في كتبنا. كان لديهم نظامٌ دقيق في كل شيء، في الزراعة والعمارة والفنون ، حتى في الطقوس الدينية التي كنّا نظنّها بدائية.

سألته وأنا أتابع دهشتي:

أكانوا يشربون الخمر مثل الأوروبيين ؟

هزّ رأسه نفيًا وقال:

كلا. لم يكن الملك يشربها أبداً ، لكنه بعد أن ينتهي من طعامه ويحتسي بعض أكواب الشكولاتة ، كان يدخّن في غليونٍ طويلٍ من الذهب ، نملأه له بمزيجٍ من الأعشاب والطيب والعنبر . وكانوا يسمّونه " الطباق "، الكلمة التي أخذناها نحن لاحقاً.

تغيّر صوته ، وبدت عليه مرارة الذكريات ، فقلت له :

وهل كان أجويلار يحظى بما حظيتَ به من عطف الملك ؟

أجاب بسرعةٍ وفي عينيه شررٌ من الاستياء:

كلا. أجويلار كان متكبّراً ، قاسياً ، سيّئ الأدب. كان يحدّث الملك بازدراءٍ كأنه يخاطب طفلاً . ومع ذلك ، لم يمسّه مونتزوما بأذى. كان يستطيع أن يعتقله طيلة مدة البعثة ، لكنه تركه حرّاً. وبتلك الطيبة، ارتكب غلطةً عظيمة دفع شعب الأزتيك ثمنها غالياً.

ساد صمتٌ طويل ، كأن جدران الدير نفسها تصغي إلى اعترافٍ متأخر . ثم قال القسّ بصوتٍ متهدّجٍ كصوت من يعترف أمام الله:

كنتُ أراه يجلس على عرشه العظيم ، تحفّ به الزهور والعطور والبخور، فيظنّه المرء إلهاً من نحاسٍ وذهب . لكنه في خلوتنا ، كان إنساناً بكل ما تحمل الكلمة من ضعفٍ وشكٍّ وخوف . كان يسألني عن الإله الواحد ، ويتأمّل طويلاً حين أحدثه عن المسيح . كان يريد أن يؤمن ، لكن ماضيه ، وكهنة قومه ، كانوا يشدّونه إلى جذور الأرض التي أحبّها.

أطرق القسّ رأسه ثم همس:

لقد أحبّ قومه حقاً ، وربما لهذا أحبّوه حتى النهاية ، حين رفضوا أن يصدّقوا أنه مات مقتولاً بأيدينا . كانوا يظنون أنه سيعود ، كالشمس التي تغيب لتنهض من جديد.

قلتُ في نفسي وأنا أسمع كلماته : كم يشبه هذا الرجل مَن يروي قصته . كلاهما أحبّ ما لا يُفترض أن يحبّه ، وخسر كل شيء باسم الإيمان والحضارة.

ثم سألته وقد غلبتني الحيرة:

هل تظن يا سيدي القسّ أن كورتيز كان يؤمن بما فعل؟

نظر إليّ طويلاً ، ثم قال بصوتٍ باردٍ كأنه يخرج من قبرٍ قديم:

كورتيز لم يؤمن بشيءٍ سوى ذاته . لم يكن يبحث عن الله ، بل عن الذهب . أما مونتزوما فكان يبحث عن الله بين رماد المعابد التي أحرقناها نحن.

سكت القسّ طويلاً ، وأغمض عينيه كأنه يرى المشهد الأخير من حياة الملك. ثم قال:

رأيته يوم أُسر. لم يصرخ ، لم يقاوم . كان هادئاً كمن يعرف أن نهايته بدايةُ شيءٍ أعظم . وعندما رشقوه بالحجارة ، لم يرفع يده ليحمي وجهه . كان يبتسم، كما لو أنه يغفر لهم ولنا معاً . عندها فهمتُ ، متأخراً جداً ، أن من أحبّ قومه حقاً ، لا يمكن أن يموت إلا واقفاً.

X

انتهى القسّ من حديثه ، وبقي صدى كلماته يتردّد في رأسي كترتيلةٍ حزينةٍ منسية . رأيتُ في عينيه ما يشبه اعترافاً أزلياً بالذنب والدهشة ، وشعرتُ أن التاريخ ليس سوى حوارٍ طويلٍ بين الضمير والخطيئة.

أما أنا، فخرجت من الدير تلك الليلة ، والسماء تمطر بخفوتٍ كأنها تبكي حضارةً ضاعت بين نار الذهب وبرد الإيمان.